

منصورة عز الدين

أخيلة
الطفل

رواية

أخيلة
الطفل



الشعر



منصورة عز الدين

أخيلة الظل

رواية



إلى،

كريم، علو النار المكون بظله، والحالم يكون أزرق!



mohamed khatab

«الكلام الكثير يفقد أخيرًا إلى الصمت، ثُبَّتَ قلبك على جوهر
الفراغ».

لاوتسو.. «كتاب الطاو»

ترجمة: غراس السواح

ليست صورة، بل ركلة محكمة!

تخيلوا معي مقعدًا خشبيًا في الباحة الأمامية لبيت على ضفة
«الفلتافا»، قريبًا من جسر تشارلز.

على المقعد تجلس امرأة مكتنزة، شعرها يتلاعب به هواء الربيع
البارد وملابسها سوداء متقشقة. المرأة مستغرقة في تأمل مساحة صغيرة
من الأرض بين قدميها المتباعدتين قليلًا. ذهنها فارغ وضربات قلبها
متسارعة.

بجوارها رجل يقاربها في العمر، بشعر داكن وملامح حادة وعينين
متجهمتين. لا ينظر إليها، يحدّق مثلها في الأرض، ومع هذا يشعر كما
لو كانت في مجال رؤيته.

وحيدان في ضحى شمس. هي قادمة من القاهرة في زيارة لواحدة
من مدن أحلامها، وهو وصل من «سياتل» قبل يومين للمشاركة في
مهرجان أدبي بمدينة لا يمل من التجوّل فيها.

الاثنان يمتهانان الكتابة، لا غرابة إذن في أن يلتقيا أثناء زيارة كل منهما
على حدة لبيت كافكا، متحفه لو شئنا الدقة.

حتى الآن لا يعرف أحدهما الآخر ولا يدركان التشابهات بينهما، كلاهما شبح يحسد بوجود رفيقه دون أن يراه أو يتقاطع معه.

«يوم جميل، أليس كذلك؟».

جملة مكرورة حاول بها الكاتب القادم من سياتل بدء حوار مع الجالسة بجواره غارقة في اللاشيء. هزت رأسها موافقة ولم ترفع عينها عن المساحة بين قدميهما، فكاد جاراها يقلع عن رغبته في دردشة عابرة مع امرأة لا تدل ملامحها على عرقها أو جنسيتها.

استقامت في جلستها وباغته بإنجليزية متقنة: «سأكتب عن هذه اللحظة يوماً ما. ثمة لحظات يتكثف فيها الزمن حتى أكاد أشعر بثقله وقوامه، أحقق فيه وأراه يبادلني التحديق. اللحظات المماثلة تمكث طويلاً بداخلي، ولا أتخلص منها إلا بتفريغها على الورق. الآن وهنا، أعاين الزمن كما لم أعاينه من قبل، أراه متجسداً في المسافة بين قدمي».

- «أنت كاتبة؟! أنا أيضاً كاتب. أزور «براغ» بشكل دوري، وفي كل مرة تأخذني قدمي إلى هنا ما إن أضغ حقائبي في غرفة الفندق».

- «هذه زيارتي الأولى، لكن هل ستصدقني لو أخبرتك أنني أرى «براغ» في حلم متكرر، وأنها في الواقع، مطابقة لما سبق وحلمت به؟»
لم يرد، وإن حملت عيناه فضولاً دفعها لمواصلة ما بدأت.

«في حلمي، كنت أكتب قصة - وأراها وأشارك في أحداثها في الوقت نفسه - عن كاتبة روسية تعيش في «براغ»، تكتب بدورها عن طفلة ناجية من مذبحته. يسكن مع الكاتبة الروسية عازف بيانو رغبت خلال الحلم في اختيار جنسية مناسبة له، ثم قررت إرجاء الأمر لوقت لاحق!

كان ثمة أيضاً عجوز يسير بلا انقطاع، جيئةً وذهاباً، على جسر تشارلز، فيما أنابه من شرفة الكاتبة الروسية في بناية تشرف على الفلتافا.

في خطوه اللانهائي، يعمن العجوز النظر صوب موطن قدمه، كأن نظرتة هي ما يحفظ توازنه، قبل أن يحدّق في امتداد النهر على جانبي الجسر.

- «يبدو كفيلم أكثر منه حلماً»

- «ربما، لكن جغرافيا المدينة كانت واضحة جداً في رأسي، كما أنها مطابقة لما أراه في زيارتي هذه».

منذ وصلت، تسير بالساعات، جيئةً وذهاباً، على جسر تشارلز، وتسكّع طويلاً بموازاة الفلتافا بحثاً عن بناية عتيقة تقع فيها شقة كاتبة روسية رأتها في حلمها، واثقة من أنها موجودة، بكل تفاصيلها، في انتظارها.

تخطو بلا كلل، وفي ذهنها أن عجوزاً يتابعها من شرفة شقة في البناية بالغة القدم، مديراً ظهره لكاتبة ستينية منهمكة بالداخل في مراثون مع الكلمات والأفكار، ولعازف - بلا جنسية محدّدة - جالس إلى بيانو على مقربة منها متأملاً أصابعه المقرودة فوق المفاتيح، ومحاولاً تجاوز حاجس أنه فقد، إلى الأبد، قدرته على العزف.

العجوز، غير متنبّيه لما يحدث خلفه، ولا يخطر في باله مأزق رفيقه، فقط يراقب من تدرج الجسر بدأب، واثقاً من أنه كان إياها في حياة سابقة، وأنه لولا المرض لما اختار نشاطاً يقتل به الوقت أفضل من هذا السير الطقوسي من إحدى ضفتي الفلتافا إلى الأخرى.

ماذا لو اخترنا للقاهرة الجالسة في الباحة الأمامية لمتحف كافكا، اسم كاميليا! وللرجل القادم من «سياتل» والمستكين بجوارها منصتاً لكلماتها اسم آدم!

تأخرتُ في هذا؟ أعرف، لكنَّ أشياء مماثلة يمكن التسامح معها في ألعاب الخيال.

باحث كاميليا لأدم، بأشياء لم تسر بها لأقرب المقربين منها، إلا أنها احتفظت لنفسها بسرّها الأثيبه بتريئة متعاطفة ولطمة موجهة في آن.

تريئة ولطمة محورها بذرة طفل تكون في أحشائها لأسابيع سنة، قبل أن تتخذ قرارها الأصعب بالتخلص منه. لم يستغرق وجودها في المستشفى سوى ساعات قليلة، خرجت بعدها بلا تغيير ظاهر، وإن أدركت أنها لن تعود كما كانت. آمنت بأن فجوة، حرقية لا مجازية، حُفرت بداخلها.

في الليالي التالية حاصرتها الكرايس، واعتراها وهن لم يفهم الطبيب سبباً عضوياً له. هجرت الكتابة، وقضت أيامها تسكع في شوارع القاهرة حتى يهدأ التعب، فتضطر إلى الجلوس في محطة أتوبيس، أو على مقعد في حديقة عامة، تحدق في نقطة بين قدميها، أو تأمل غراباً يأنس إلى شجرة مجاورة.

في حديقة، اسمها «الحرية»، تقع في مواجهة دار الأوبرا، جلست كاميليا شاردة قبل سفرها لبراغ بأسابيع. أخرجت هاتفها المحمول، والتقطت صورة لنفسها، فلم تتعرف على المرأة الناطرة إليها من شاشة الهاتف. أفزعها حزن مخيم على نظرتها، وتهدل جفنيها العلويين وتجاعيد مبكرة غزت وجهها المرهق. في التاسعة والثلاثين، بدت كاميليا وحيدة منهكة وأكبر من عمرها بعشر سنوات.

لم تكن صورة، إنما ركلة مُحكمة أطاحت بما تبقى داخلها من عقل وأثران.

لتنخيل الآن ركلة عنيفة تدفع صغيرة في الخامسة للطيران ليرتطم رأسها بالجدار المقابل دون أن تفهم أي جرم ارتكبت.

فلتتذكر هذه الركلة، لأنها مهمة في سياق لعبتنا؛ فكامليليا لم تنسَ قط تلك الركلة منذ أطاحت بها وعلمتها أن أصعب اللطمات تأتي حين لا تتوقعها.

هي مؤمنة بأنها ما كتبت سوى لمحاولة فهم هذا الحدث الصغير المستعمي إلى طفولتها المبكرة:

«ربما أكون كتبت لأبتكر مبررًا للارتطامات غير المتوقعة، للركلات الموجهة إليّ من أشخاص لم أؤدّهم في شيء ولم أتخيل يومًا أن مجرد وجودي يضايقهم».

هذا ما قالته لآدم، وهي تهز كتفها متظاهرة بعدم الاهتمام. أنصت إليها، ثم أخبرها أنه حلم بأن يصير كاتبًا، منذ قرأ في صباه قصة لـ«لافكرافت»⁽¹⁾، بل منذ رأى اسم «لافكرافت» على غلاف الكتاب. يا لروعة الاسم، ويا لقوة الرجفة التي تعترى آدم حين يتذكر تلك اللحظة البعيدة.

«لافكرافت: حرفة الحب». خطر له وقتذاك أن الكتابة هي حرفة الحب المقصودة، وأنها تناديه كـ«سيرينة» مغوية، على صخرة، في طريقه لإيشاكا لا وجود لها.

عاش لياليه التالية في صحبة ارتعاف لذيد، بينما يلتهم قصص «لافكرافت»، حالمًا بابتكار ما يفوقها.

لن يبدو الأمر غريبًا لو افترضنا أن آدم هذا حفيد لاجثة شرق أوسطية تزوجت بحارًا يونانيًا، وانتقلت معه من ميناء لآخر، حتى استقر بهما

(1) هوارد فيليبس لافكرافت (1890-1937) كاتب أمريكي تخصص في أدب الرعب.

المقام في «ميائل»، فكما تعرفون كل شيء مباح في لعبة الافتراضات، وما نحن بصدد مجرد لعبة.

ما لنا والقصص؟ لتركها للكُتّاب المشغولين بالحكايات ذات المغزى، ولننغمس نحن في ما قد يعيننا على ترجية الوقت أو تجاهل قبضته الغليظة على أعناقنا.

لن يفهم هذا إلا: امرأة تلاحقها ذكرى ركلة قديمة، ويقتات على أعصابها طيف هاوية تتسع بأطراد في جوفها. ورجل يتحدّر من نسل ناجية من مذبحه ويبحّر سثم السفر وقرّر الاستقرار في مدينة باردة مستسلماً لحياة لا تعيد بالكثير.



«الحلم والكابوس مغزولان من الخيط نفسه، أحلامي وكوابيسي من القماش ذاتها. بكلماتي نصبتُ الفخاخ لنفسي. كنتُ الصياد والفريسة، لم يكن «لا فكرافت» سوى حجة لمعانقة الخوف. في مناماتي تطاردني طفلة لها عيون جدني، صغيرة منهكة في مسيرات الموت. لا تبكي ولا تصرخ، فقط تنظر إليّ وفي عينيها هلع العالم، خوفه الأكثر بدائية وقدمًا. لم تكن جدني ابنة المذبح، بل يثيمتها».

قال آدم لكاميليا كمن يحادث نفسه، ولما لم يسمع ردًا التزم الصمت، وحقق في صورة كافكا المعلقة في مدخل المتحف.

في طفولته، اعتاد فتح الأطلس، والتحديث في خريطة العالم، بحثًا عن مسقط رأس جدته، متبعًا مسارًا متخيلاً لانتقالها منه إلى بيروت، حيث التقت جده وتزوجته. اعتاد أيضًا تظليل مدينة سالونيك، حيث وُلد الجَد، بقلم أحمر علّم به كذلك على كل ميناء وقع عليه بصره. كان يحلو له تخيّل أن جده مرّ بكل تلك الموانئ.

في حالة لجد لم تكن ثمة صعوبة، لأنه لطالما استمتع بالحكي عن ماضيه و لآماكن التي رآها أو عاش بها. أما في ما يخص العجدة، فالأمر كان ولا يزال رهناً بتحولات ترك حميدها كالثاث في غداة مظمة

خطر لأدم أن تكون قصته انقذمة عن «ناج» من كارثة، أفاق ليجد نفسه بين الألقاص، ثم معزولاً في غابة من أشجار السلوط، لا يدري بالضبط حقيقة ما مر به، ولا ما جاء به إلى ظلمة العدة ورضوتها في العانة، حيث الطلال تسيطر على الأحواء ولا مكان لبضوء الواسع، كان يحدث نسج دأكن يشبهه، يحطو في الممرات بين الأشجار - ملا ملل. من بعد يأتيه صفيير الريح، ودوي منبر بالخطر كأن انكون بأسره استحبال عاصفة صوتية مخيفة

فكر آدم أكثر في بطل قصته المحتملة، فحسدت له صورة جدته في شيخوختها، وهي ترسم بأعباء نعمة لا يعرفها أعباء أقرب لتراويل حائرة، كانت تدحليها كل مرة إلى قوقعة تعزلها عن الجميع

لم تحدث لأحد قط عن ما مرت به حياتها، المصريح بها تبدأ من لحظة لقائها سحار يوناني حُس بها فارتحلت معه ولم يفترقا إلا بوفاته. كل ما سبق هذا متروك للتخمينات، تخمينات انشغل بها الطفل لذي كانه آدم، في جلساته الممتدة بقبو منزل عائلته.

في القصر، نعم آدم كل ما يلزم تعلمه عن الحياة!

أدرك، مثلاً، أن الوسيلة المثلى لقهر الخوف هي لاستسلام التام له، التماهي معه بحيث تكونه ويكونك تصوير أبت وهو شيئاً واحداً، وساعتها سيتعلم فيك، فيقد سطوته عليك ويصيح وحشاً هرلياً بلا جلال أو قدرة على التخويف.

في القصر المعتم حذق في وحه محافوه وامتصتها مسامه، رقد على ظهره، منتظراً أن تتجسد أشباح محبته أممه، وتصبحه إلى كل ما رتعب

منه سمع فقط أصواتًا مكتومة لجرذان محتمة في الظلام، أصت لأفكاره وصمته.

سبح في عوالم «لأفكرافت»، فدت له مع اوقت بعيدة عن واقعه، ومع ذلك اختار العيش فيها والإيمان بها وقعت أنيس في حفرة الأرنب موطأت أرض العنائب، وقضى هو أوقاته في ظلمة القبو المزدهم بالكراكيب والمغطى بالغباء، فأتقن سر أغوار داته

قرأ مرة عن قبيلة بدائية تعلق على صغارها القبور لساعات كي تقتن خوفهم بأغرافهم فيه، لم تخبره المقالة عن مصير من مرؤوا بهذه التحربة، ولم يعرف كيف عاشوا حياتهم بعد «موتهم» المؤقت، غير أنه يدرك أن الصغير الذي رقد في القبو المظلم لأول مرة، احتف عما كان، بعد مجاورته لكوابيسه وترويضه لها.

في سكود، القو، أشرق عقله بفكرة أن أسوأ لشور مغروسة بداخلها، وأن، الأشاح والنشاطين متآلف في تهويل أمرها والتخويف منها، للنمويه على الشر الكامن في قلوبنا.

من سئموا حياة جلته، وقضوا على عائلتها، لم يكونوا أشباحًا أو شياطين بل بشر. سكنه رعب جديد. أن تضطره الحياة لإخراج جانبه المظلم.

لم تحلّ جذته قط عن أهوال طعولتها. نحولت إلى طلسم ملقى في أعماق بشر. كانت نجلسه بجانبها وتغني له بصوت شجي ما لا يفهمه، فيما يسرح هو بعيدًا متجلاً سياربوهات محتملة لما يحفيه وترفض الاعتراف به

براها بعيني خاله - صغيرة مرتعشة، تحبس نفسها في حراه ملاس مظاهرة بالموت حتى يزول الخطر. يروقه تخيل أنها تظاهرت بالموت لفترة قصيرة عاشت بعدها تظاهرها بالحياة

في مخبئها المفترض وصلها عوين أمها وصراح شقيقاتها المختلط بصوت لطمات وأوامر خشنة. معادرة المعتدين حاصرتها رائحة الدخان خرحت بجسد مرتعش وعينين لا تريان، فأبصرت حثث أسرتها: كن عرايا عرقت في دمائهن النيران، نلتهم كن ما في طريقها والصلاله محتقة بدخان شديد السود تندسه بيران مسعورة بدرجة لونية لن تسبها الصغيرة أبداً، حتى آخر عمرها امتنعت عن ارتداء ليرتقلي بكل درجاته، وتحاشت النار ما استطاعت.

مترددة بين لارتواء على حثث أحتها حتى الاشتعال معها وسن الهرب وقفت لبرهة. لسعة البيران حسمت لأمر. جرت عائده إلى العرفة، وقفرت من الباعثة المكسورة. ركضت دون إدراك للمسافة أو الزمن، ثم خارت قواها وبدأت دموعها في الفيضان. يكت يانة عن كل القننى منذ بداية الزمن.



في القبر أيضاً، احتبر آدم تجرته الجنسية لأولى كانت الفتاة أكبر منه بسوات قليلة، فادت خطواته إلى حياها جسدها وحسده، سحنه في عحاله إلى طريق المتعة. كانت عصية نافذة الصبر وتبرمت حين قدف سريعاً ظن لفترة بعدها أن نعاد الصبر والعصب سمناك ملازمتان للنساء في المواقف الحميمة، صيق الفتاة أورتة رهبة من العجس كلفته سوات من عدم الثقة بالنفس والقلق من ألا يكون قادر على إرضاء امرأة

يعكّر في فتاة القبر، فيخايله طيف شابة شعر بحاسي وبشرة يكاد يحفيها المش وعينين لونهن، حائر بين أحصر بهت وعسلي مائل للحضرة، لكن الشعر الأشبه بعيمة فوق سماء الجسد المشدود هو ما بقى معه، لأنه ظل لسوات يستحضرها، وهي تعاديه بصمت أقرب للتوبيخ: ارتدت ملابسها بهدوء، وعادرت دون التفاتة واحدة لمن كان

لا يزال راقداً يتدأري حلف سيجارة منطاهراً بالانغماس في تدخينها والتحديث في السقف.

مؤكد أن إضاءة القبو لم تكن جيدة، وأن لون شعرها ناتالي لم يكن مشعاً واصحاً، غير أنه لا يتذكره إلا برفقاً مارجحاً خلفها على وقع خطواتها الراقصة لا يستحضر فتاه مراهقته هذه إلا وصهرها له، كأنها في وضع نعورمه ومغادرة له بشكل دائم.

تنقلت إلى مدينة أخرى بعدها بقليل، ولم يرها ثانية، ومع هذا ظل يراها في كل امرأة لها لون الشعر ذاته، ويقي حساساً لكل بدرة إعراض عه

لم يفهم لماذا حكى لكاميليا هذه الحكاية القديمة، ولا كيف ناح بها بأسرار طفولته ومراهقته، أثناء جلستهما في الباحة لأمامية لمصحف كافكا، كن ما يعرفه أن حيط الحديث امتد بينهما سلاسة وعقوية، بدواً كما لو كانا يتسابقان على أيهما أكثر حراً في لتعري المهي والكشف عن أعماق مخاوفه.



شمس يظهر من خلف العيم، هواء يهر سعب الخيل، ومدهد يقر العشب بثقة أحمر، يسما تجلس كاميليا إلى مقعد في «حديقة الحرية» بعينين ثملتين، تستعيد جلسة سابقة في باحة بيت على صفة الفتاة، وذكرى قديمة متجددة تلاحقها أينما اتجهت.

أصبحت هذه الحديقة شبه المحفة ملجأها كلما شعرت بضيق ورعب في الغرق داخل ذاتها. منذ جلست فيها قل أسابيع من سفرها إلى براغ، وحذقت بأسى في صورة التقطتها لفسها بعدسة تيفونها المحمول، وهي تحس برابط عميق يربطها بهذا المقعد الرخامي المثبت بأرض الحديقة العامة التي نادراً ما يلاحظها المارة السائرون في المسافة

بين كوبري قصر النيل وكوبري الحلاء، أو عبرات الممرقة أمام دار
الأوبرا.

أغمضت عينيها فواحتها هوة سوداء تنسع داخل حسدها، التهمت
في اسدية الرحم، ثم المبيضين والكليتين، فارتحفت كاميليا
وحذقت في العيوم لمسحة خوف من أن تصاعف الهوة ونطرد قلبها
من تجوفه. حُبل إليها أن السحب ترسم صورة طفل بحبو، فامتعت عن
النظر لأعلى

انتهت إلى أن الحديقة تكاد تملو من المشرهين، وصلبها أصوات
إشارع بالحارح، وغرد طائر تجهل اسمه نظرب إلى اليمين فترى لها
طيب رجل شعر داكن وعينين متجهمتين يجلس بحوارها

قالت موجّهة حديثها إليه أملاً هي أن تمحو الكلمات صورتَي الطفل
والهرة السوداء:

«كثيراً ما أشعر أنني لست امرأة من لحم ودم، بل فكرة حطرت
لكاتبة، وراحت تجترها بلا رعة في تعميقها أو اتسوع فيها أو حتى
كتابتها. رنوش حفيظة في لوحة عصية على الاكتمال. أكتب بحثاً عن
تمامي وطمعاً في تحويل الفكرة العابرة، التي هي أنا، إلى كيان ملموس
له وجود واقعي».

قالت أيضاً:

«ليس الأمر أنني أستعير حيوات شخصياتي العبية وأمرجها بحياتي،
بل أن حياتي نفسها مستعارة، لا تحصني ولا تشهني، كأنني افترضتها
من عمار سبيل عحول، وتركت طعلة كتبتها، امرأة كان من المفترض بي
أن أكونها، هناك في مكان قديم، في ركنٍ معتم يتراكم عليها العيار.

حلال رحلات متتالية بالقصر بين مدد أوروبية عديدة، عمرني شعور

أنني أعيش حياة امرأة أخرى. كنت أقرب - من نافذة القطار - العابات
واللهجات والحبال العابرة فيتضاعف شعوري بهذه الاتجاه المُقترضة
ويرداد انفصالي عنها. «ليس من المقترض بي أن أكون هاء!». كنت أقول
لعمري على مدى شهر فصته هناك، قبل أن أتذكر أن هذه الجملة، هي
العنوان المصغر لحياتي منذ بدايتها. لطالما امتنكي إيمان عميق بأنني
دائمًا وأبدًا في المكان الخطأ.

ولمّا لم تلقَ ردًا، فكرت في أن الكتاب، في جوهره، مطاردة لسراب
ولعب معه، بل واختراع له تحويل الواقع المؤكد إلى سراب مختل،
والإيهام بأن السراب حقيقة ماثلة تنتظر أن يرتوي بمائها المتطير.

ربت ليميس من جديد، فكشف لطيف، ذو الشعر الداكن والعينين
المتجهمتين، عن سرايبه وتلاشى نظرت حولها، فلمحت رواد الحديقة
القميلين يتابعونها بدهشة قبل أن يتظاهروا، معرجين، بالانشغال بأمور
أخرى

من مقعدها في حديقة الحرية، أغصت كالملي عينيه محدّدًا،
ورفعت رأسها، فدأبصرت «سبلاً صاحبًا من الصور ومشاهد» «رأب»
سماة أخرى أشبه شاشة عروس، على صفحاتها كرنالات رقصه تشمل
على - فرفه موسيقى تعزف بلا انقطاع، حول ترقص على وقع لعمات،
أطفال راكضين بهرح، ويران مشتعلة حولها أوس يستمعون لعصص لا
بهائية وفي حدقاتهم ينعكس اللهب المتأجج.

عرق أكثر في الصور المتلاحقة فرأت نفسها شامة في شرفة مظلمة
بين ذراعي رجل يكمرها بعشرين عامًا، بعد لحظات وفي الشرفة نفسها
لكن ذات بهار ساطع، كانت تحلس محتضنة طفلًا رصعًا متعلقًا بها
فما هي مشتعلة به بمراقبة كرنالات شاشة العروس السماوية، ثم تغير
المشهد، عبت اللمسة الاحتفالية، وصهرت فجأة عربة تجرها حيول

د كصة، تحترق صفحة السماء، ثم تتحدر كشهاب يحترق في طريقها إلى كاميبيا، ومن نافذة لغوة مندت يد قوية ووصلت إليها لتتزع الرضيع منها.

أفاقت من أفكارها وتخيالاتها على مشاعر مختلطة، أحست بالهنع من فكرة انتزع رضيعها من بين يديها، ثم براحة لعدم وجوده من الأساس، راحة نالها حزن على فقدته قبل أن يُولد.

رفعت كاميبيا عينيها إلى السماء، وتأملت الرسوم ولأشكال التي تكوّن لها لسحب. بانّت بها، هذه المرة، كتكويبات هلامية لا تشبه شيئاً محدداً، ثم مع لتدقيق، تشكّل أمامها ما يشبه رسماً لمرس بجوارها مُمهرة، بدتاً كأَم وصغيرتها تسيران متحاورتين. تماماً كما كانت كاميبيا تسير، بجوار أمها في مشاوير قرية للتسوق أو لزيارة إحدى الصديقات، حيث ثُرثرت دافئة لا تقطع مصحوة بطقس تناول قهوة تركي ينتهي دوماً بقرعة دولت لصوالع صديقتها في فاحيح قهوتهن أو أوراق «التروت».

في تلك اللحظات، اعتادت كاميبيا أن تراقب أمها بالنهار، إذ كانت تراها وكأنما امتلكت فجأة قوى سحرية، حتى ولو لم تكن نبؤاتها صحيحة دائماً، يكفي أن أنعاس لصديقات تنحس انتظاراً لما ستقوله لهن صديقتهن لتي تعلمت قراءة الطالع من مربيتها السويدية.

في طريق العودة إلى البيت، قد تحكي دولت لابنتها سر اختيارها «كاميبيا» اسم لها، وقد تعدها بأن تعلمها قراءة الفصحى وأوراق لتاروت حينما تكبر. مهم تنوع موضوع حديث الأم، فتمك كانت أكثر لحظاتهما معاً دفئاً وحميمية في الشارع، وأثناء سيرهم بجوار ابنتها، اعتادت دولت أن تكون في أقصى درجات حباها، كأن ثمة شيئاً ما كان يكتلها في البيت، ويقف حاجراً بينها وبين ابنتها.

سمَّيَها أمها كاميليا نيمتًا ممثلة الأربعينات الجميلة. حين كانتا تجلسان معًا لمشاهدة فيلم كاميليا الأصلية، «قمر 14»، كانت كاميليا الطمعة تشعر أن الاسم المشترك سخرية شريرة منها. لم تمثل حقيقة أن ممثلة الأربعينيات كانت مجرد وجه جميل بلا موهبة تذكر، عراءً كفيًا. كما لم يقلل من معارفة الفارق، بين بطلت العادية وبين سميتها لمشيرة، أن الاسم الحقيقي للأحيرة كان ليبياد كوهين وأن دولت وصدفانها كُنَّ يتنادين الصغيرة بـ«ميليا».

لم تكن الأم تحب تلك الممثلة على وجه خاص، إذ لم تشاهد لها سوى فيلمين، ومع هذا قصت سنوات مراقبتها تجمع صورها ومعلومات عنها من المجلات الغيبة، لا لسبب إلا لأن الأم الرومانتيكية أحسب علاقة المرأة الحميلة بالمخرج والممثل أحمد سالم.

فلنقل إن إعجابها الأساسي كان منصبًا على أحمد سالم نفسه، الرجل الأكثر جدية حسية من وجهة نظرها، طالما تمتت لو أنها عاصره وتعرفت عليه. اهتمامها بكاميليا الممثلة لم يكن أصيلًا إذن، بل إكسسوار مكمل لغرامها المراهق برجل لم تره إلا في صور قديمة ومشاهد بالأبيض والأسود في أفلام نادراً ما يذكرها أحد، ولم تعرف عنه إلا ما قرأته من معلومات تقدم صورة غير مشرفة تمامًا، لطفل ضئيل يحمل بدلة حلقة نيرة فنائه ويشعل بيده حلقة مسحوقه لاحقاً، وهي مفتونة منذ صغرها بهذا النمط من الشخصيات، ممثلوها المفضلون هم من أحادوا أداءه، فما النال وقد تجسد في شخص حقيقي بعيداً عن شاشات العرض!

مراهقة حطرة قادتها إلى الزواج في العشرين ممن رأب فيه الرجل لأقرب شبهاً بقى أحلامها المقامر.

بين أم حيالية تحيا في زمن آخر، وأب عصبي رأى في شروء طققته

اندانم وبطء حركتها علامتي تأخر عقلي، عاشت كاميليا في انتظار ابركة
التالية من أب تحوّه نوبات غضب جنونية إلى كائن محيف لا يشبه فكرة
ابنته عن الآباء.

حقيقة أن ابركة، ابنتي صيرتها في الهواء وهي في الخامسة، لم تتكرر
ثانية، لم تهدئ مخاوف كاميليا، ولم تقنعها قط بالسحلي عن هلعها كدما
رفع أحدهم دراعه أو حرك قدمه عنى نحو مماجى وسب هد أن الأب
استدل بالركلات تشكيبية متنوعة من العقاب الجسدي الخفيف أحياناً
والمؤلم غالباً، تشكيلة أورثت كاميليا شعوراً دائماً بالسقوط من علٍ

بعد كل هذه السنوات، كثيراً ما استفيق من نومها، على إحساس
بالتدحرج لأسفل، بالاندفاع نحو هاوية بلا قاع، مرات أخرى تكاد
تشعر بحسدها يطير في الهواء حتى يرتطم رأسها بالجدار المقابل مئات
المرات تتكرر ركلة أبيها لها وتلاحقها كعقوبة أبدية

لم نفهم قط كيف يسيطر هذا الحدث الوحيد على لا وعيها على هذا
السحوا كيف لم تخف حدة الارتطم مع الوقت

لصالحا شكت من أن لها ذاكرة مسرفة في تبديد ذكرياتها، الآن تبتهل
كي تتبحر ذكريات بعينها من رأسها، غير أن هذه الذكريات اندادت تبدو
كعش على حجر، كركلة خلقت ندبة تشبه وشماً

فليكن اسمها أولجا

لنفترض أن الكاسية الروسية، التي حلمت بها كاميليا، تُدعى أولجا، وأنها طويلة وممتلئة، بشعر فضّي قصير وعيين بهت زرقتهما

أولجا هذه، قصت الشهور الأخيرة في برائن إدمون لم تجرؤ على مصارحة أحد تفاصيله. تحلس إلى حاسوبها، وبدلاً من الكتانة لساعات كما يُفترض بها أن تفعل كل صباح - تغرق في أحلام يقطعة لانهاية.

تمحور أحلام بعضها حول شخصيتين متخيلتين. رجل اختارت به اسم ادم ومحبّته مقيمًا في مساق، وامرأة سمّتها كاميليا وحدثت في تحديد مكان عيشها.

أبنة تحلاتها هذه يجب أن تعيش في مدينة شرق أوسطية عريقة فكّرت أولجا في إسطنبول ثم أصفهان قبل أن تقرّر أن القاهرة هي القعة الملائمة

آدم وكاميليا، كم خيالها، يمتهان الكتانة ولتقيا مصادفة في براغ، في البداية لا تنطوّر معرفتهما كثيرًا. يتعامل كل منهما مع الآخر كشريلقي فيها أسرار وحياته، كما يفعل غريبان شقان من أن طرقهما لن تنقطع ثانية

تفتح أولها حاسوبها المحمول، تترك أصابعها ترناح على لوحة المفاتيح، ثم تطلق لحياتها حرية للهو بحياتي آدم وكاميبيا إضافة وحذف، ولا تخطو أحد من هذا لتحويلهما إلى حروف وكلمات.

لا نكتبهما، لأنني أريد لهما الحياة في صخب أفكارها، أرادتني سرًا حميمًا، لا كتابة عمومية تستهدف قراء لا تعرفهم ولا يربطهم بها سوى كلمات لم تعد تؤمن بجداولها.

صعوبة وبعد ساعتين أو أكثر، تسحب نفسها من ركام خيالاتها، وتفتح ملف قصة تكتبها منذ شهر عن طفلة ناحية من مذبحة

تراوحتها التفاصيل وستعصي عليها، فتحدثني بأن قصة الناحية ستظل ناقصة حتى لو كتبت ونشرت. هذا الوعد بالقصاص هو ما يعوي كئيبًا ويدفعني لعدم التحلي عن بطلتها الصغيرة مهما تضاعفت جاذبية آدم وكاميبيا وعلاقتها المخاتلة

اختارت لبطلتها الصغيرة اسم أميديا، تيمناً بروحة نوح بصبر، تلك التي شيد لها حدائق بابل المعلقة كي تذكّرها بثلال وجبال ومرتفعات مسقط رأسها، فلا تشعر بالعربة أو الحبيب المريض وهي معه في موطنها الجديد.

غير أن بطللة أوبجا ليست ملكة معشوقة تُشيد من أحلامها العجائب المعمارية، بل صغيرة مرتبكة تحتل ذاكرتها صوراً ومشهد القتل والحرق والنميش بحث أسرتها ومعظم سكان قريتها.

تقرأ أولجا كل ما يمكنها الوصول إليه عن مذابح الربع الأول من القرن العشرين. تهتم بمذابح الشرق الأوسط؛ تحديد أهوال عام 1915 في تركيا، تنفت نظرها مذبح «سيفو» ضد السريان والأشوريين تتخيّل صفة تتعثر في ممراتها لحائرة بين الآشورية وانتركية، قاموسها

الشخصي جماع متاخر من مفردات باللغتين، كونه لا تميزُ بعد إحداهما عن الأخرى.

تجدد أولها نفسها مسكونة بعوامات حشوية فارعة تسبح في مجرى نهر دجلة، متنوعة بجثث القتلى طافية حلقها، على سطح الماء، في الطريق إلى الموصل، ويسوت تحيلها السيران إلى تراب فتصير انقري سماء من دحان داكن، كأن أحدهم قد شوه صفحتها بشحطات لانهائية بقلم فحمي، حتى طُمِسَتْ معالمها وحُيِّم عليها مवाद غباري كثيف

تعت أولها آميدياً بالكلمات، وهي تركض متعثرة في حطواتها وهي فطائع لأيم الأخيرة

احتاح الأمر في البداية 50 رجلاً. جمعوا أي قطعة سلاح محتملة من البيوت، واقتادوا رجال القرية وقتلوه في الساحة كان هذا مفتوح الحميم لا أكثر؛ مقدمة لمر هجموا بعدهم ليهب البيوت وحرقتها واغتصاب النساء وقتلن.

لا تعرف آميدنا كيف جرؤت على الهرب من البيت المحترق، ولا كيف ركضت حتى قرية محاوره، حيث التحقت بهاربين آخرين تحولت لطرق كلها إلى مصائد لاصطياد الناحين، والتسلل إلى أقرب مدينة كاد يكون مستحيلًا.

كم تمنّت لو كانت حفية، لو تلاشى جسدها الخفيف، وحققت روحها فوق حثث دويها، بحيث لا تعادهم أبدًا، لكن جسده كان كتيث الحصور بأوجاعه وآلامه وجروحه الباحمة عن وعورة الطريق، أم أهلها فلم يشؤ منهم سوى لحم متعخم؛ رائحة شواء بشري ستلازمها حتى لو عاشت ألف عام.

كانت تعجز قلميها بصعوبة وهي سائرة بين حليط غير متجانس من آشوريين وأرمن وسريان وكلدان ويونانيين؛ أقليّات تفرقها لغاتها القومية

الفديمة وتجمع بينها لعة مفروصة عليها من سهت عنهم آلاب الفتل البشرية.

لهتت أولجا بخيالها، حلف آميديا، من مكن لآخر، توقفت فحاة حائرة ماذا ستفعل بطلتها الآن؟ أو للدقة، ماذا ستفعل هي بطلتها الآن؟ لا رمتها الحيرة لأيام، تحملق في الكلمات المكتوبة فتبتدى لها كرسوم ذرعة. يغيب عنها معنى كل كلمة على حدة، ويتلاشى لمعنى العام لكل ما سبق وسطوته يدها.

في لحظات الجذب المماثلة، نستسلم أولجا للتوتر والإحباط، شرب طوال ليوم تقريباً، ولا تطيق أن يفترب منها أحد، ثم وفي تطور تُفاحاً هي نفسها به، يصح بطهو ملاذها حين تراوعها الشخصيات المتحيلة، وتعلت من بين أصابعها.

تت تشغل نفسها بطهو أصاف معقدة، و لقاء لفترة - محتلسة من الزمن - في عالم مفعم بالروائح والمدافاة. لا تمارسه كوحب يومي ثقيل فهي ليست مضطرة لهذا، بل كطفس مزاجي أقرب لهواية تستمتع بها وتراقب - في الوقت ذاته - ما تحتويه من سحر وإشباع نفسي، ومن قدرة على ابتكار مذاق مميز عبر خطط مكروبات أولية بسيطة تخرج منها، في النهاية، بحلق ما يمدح مهارتها ويدل عبيها.

ومع الوقت، تكتشف متعة العجن، تصير مخمسة في هذا الحوار احسني بين لأصابع والدقيق لممروح بالماء تتعلم فتح عينيه للدهشة وإزاحة غدمة البروتين اليومي عنهما وهي تعجن، فتدرك أن الخميرة لديها ما تقوله للدقيق؛ حرارتها تبعث فيه الحياة، فينمو ويتضاعف حجمه وتفوح رائحتها الممتزجة برائحته. تعرف حينها أنها ليست مضادة أن يكون ماء العجن دافئاً، فالدفء هو ما ينظله الأمر، دفاء الماء، دفاء تربيت ليد على العجسة؛ وهي تشكها كما يشكّل النحات تمثالاً، ودفاء يسري في النفس بعد الانتهاء وتأمل النتيجة

في البدء تغوص اليد في نعومة الدقيق لتتحمسه بهدوء وحذر، كأن أي صبغة زائدة كفضيلة بإفساد كل شيء. ثم تبدأ رقصه خاصة مع المعجبين المعلنين تنقل ليوبة العجيبه إلى اليد التي تصير جزءاً لا يفصل عن محيطها. تزداد قوة العنن، ومعها تستعش النفس وتطرد كل ما يقيد بها وبخاصتها، تطفو أولها فوق الأرض بصعده مستبشرات تكون كفية للوقوف، ولو مؤقتاً، على مسافة من كل ما يؤرقها. تشعر أنها قادرة، بشكل ما، على المساهمة في معجزة الحلق

ولدهشتها. تعزوها الأفكار وتتطور انحرافات، وتتردد في رأسها حمل ومشاهد مفتوحة تقودها لاحقاً - أثناء عملية الكتابة - إلى مناطق لم تمرّ فيها قبلاً.

كانت تعجن ميترا حين جالها مشهد لاميديا على سرير ضيق في دير محاط بحديقة مُعَتَى بها. الطفلة عائنة عن الوعي، وبحوارها راحة أربعينية، نقرأ في صغر الخروج، وترتت من وقت لآخر جهة الصغيرة الغافية

تركت أولجا العجينة تتحمر، وجلست إلى حاسوبها نكتب عن أميديا وهي تقيق وتعرف لأول مرة على راحة طيبة، سترعاه طوال وجودها في الدير، ثم مستاعدها - بعد سنوات - في التعرف على أسرة أمريكية من معارفها، سوف تستضيف أميديا للإقامة في بيتها مبروت كم يطيب لها.

في داك البيت المعلق بالحب والسكينة، مستقيم أميديا حتى تلتقي سحراً يونانياً، من سالوبيكي، تتروجه وبهاجر معه إلى أمريكا، لأنها في تصوورها كانت أبعد الأماكن عن محرقة الأهل هناك، ستعلم سماء بلون الفيروز، وماعز وتيوس جبليّة تمرح فوق التلال والمرتفعات، وحقول حطة ويساين حوخ، وأشجار دُنب ودردار هناك، ستحاف

الهدوء التام والصبح الفجى، وستعني أغنيات لن يفهما أو ينمعا
بها أحد سواها



أصابعها على لوحة مفاتيح حاسوبها، ودهبها في عالم آخر، تغمض
أولجا عينيها، وتدبر ظهرها لأميديا. تفكر عوصاً عنها - في ريفي
تخيلاًتها. آدم وكاميليا.

لا تراهما في جلستهما المألوفة لها في الباحة لأممية لمتحف
كافكا، بل ترى كاميليا بمفردها في حديقة عامة شبه مهجورة تكاد أولجا
تسمع ضجة خفيفة لسيارات مرعة، ورفقة عصافير، وهسيس هواء
يتلاعب بشواشي الأشجار، وفي مركز المشهد، تحلس كاميليا مكتمشة
على نفسها كظئر مبلل وجريح. للحظات بدا آدم طيقاً يشررها جلستها،
شبحاً مائلاً تبخر فجأة بلا أثر يدين على وجود سبق.

في الحال، تتحلى أوجع عن رعبتها في لكتنة عن ناحيتها الآشورية،
تقول لنفسها إن دافعها للتأمل عن قصة مستطاردها فكرتها دوماً مثل
حرمة تطالب بالثأر، نظرة لمحتها في عيني كاميليا؛ نظرة عابرة دللتها
على أن ابنة حيالاتها هذه مصنوعة من الهشاشة وحده.

تغلق أولجا ملف الـ«ورد» المعنون بـ«أميديا أو سماء بلون لفيرر»،
فتسعت أمامها صورة سطح المكتب، تأملها كأنما تراها لأول مرة

كما كل مرة، نفس لصورة أولجا، منظر شتوي من يوركشير بإجلترا:
طريق ضيق مبلل بالمطر وينتهي بأشجار متشابكة.

يمس الطريق حط من أكواخ حجرية بالأصفر البهت، أسطحها
المثلثة بلون أكثر دكنة، تتسلق واجهاتها عرائش ورد أحمر ومرروع
أمامها جازونيا وماري جولد وبرجس بري.

ويساره أشجار وحشائش وشجيرات نوت بري. حدوده من اليسار تحرسها
أرود معروسة على مسافات متساوية في حط مستقيم، والسماء لا يبين منها
سوى مثلث غائم يعكس لونه على بقع الماء المتجمعة على الأرض

تضخم أولجا الصورة فتغمرها رغبة حارقة في السير في هذا الطريق
لحظة التقاط لكاميرا لتفاصيله انحنائه الأخيرة - حيث يختفي بين
النباتات وغابة الأشجار - بأسر ليها. تتخيل ما خفي منه وعاب

لكوخ في مقدمة الصورة، تظهر من خلف زجاج نافذته السفلية
وحديدتها متارة بيضاء، أما النافذة العلوية فلا مسائر، من وراء زجاجها
ومربعات حديدتها المتقاطع يبدو شيء عجز عينا أولجا المرهقتان
عن تحديده؛ قد يكون مصباحا كهربيا، أو رهرة بيضاء هائلة، أو مجرد
انعكاس لتفصيلة خارج الكادر.

يروق لأولجا تخيل حيوات من عبوا هذا الدرب، من سكنوا الأكوام:
مناب من الاحتمالات لفصص حب وعيرة وضغائن وضراعات صغيرة
وكيرة.

وماذا عن النباتات؟ كيف زرعت وحس زرعها؟ وكم شهدت من
حوادث وتقلبات؟

لا نملك عزيزنا أولجا أجوبة نهائية، لكنها تتسلح بخيالاتها وأحلام
يقظتها. كل تفصيلة، في الصورة أمامها. وعد بقصة لم تُكتب بعد، وكل
نافذة تخيل حكاية غير مروية، كل نقطة مطر متجمعة مع مثيلاتها
في بقع متفرقة على طريق موح ومغر بمسير بلا هدف أو نقطة نهية
موشومة بتاريخ لسماء والحرار والغيوم منذ بداية الخلق.

تحدق في الصورة، فينبعث في خيالها طيفا آدم وكاميليا. تكاد ترى
كاميليا بمعطف ثقيل تستند إلى حقيبة ملابس وتقف مترددة أمام الكوخ
لأرب قل أن تدق بابه، تنظر إلى امتداد الطريق، ترى ما يحفى على عيني

أولجا، إذ تقيمه، خارج الكادر، الانحاء المداغمة للطريق والأشجار
لمتشاككة، وتطرده بعيداً عن العيين المتدهفتين للرؤية.

ترفع كاميليا وجهها للسماء تنمحص الغيوم وتحدس بمطر وشيك،
تنعاني ضجة من خلف أولجا، فتستيق من حياتها منزعجة رفيقها
- عازف ليينو - عاودته نوبة غضب جديدة، يخبط يديه بقوة هي الليانو
ويعلق عطاءه يسحب إلى عرفته ويصفق بابها خلعها

تهر أولجا رأسها لتنمحص عنها مقاطعه لأفكارها، وتعود لصف
لأكواح وللطريق المبلل بالمطر. تجد كاميليا قد تلاشت يحظر لها
أن الممكن بحالته تلك لا ثلاثم شخصية آدم كما تنحيلها، ثم إنه من
لمتخص به أن يقيم في سياتل لا يوركشاير!

«وحدثها!» مخاطب نفسها متحمسة، بدلاً من الطريق الضيق المؤطر
من جهة نأكوح ومن الأخرى بأشجار كثيفة وشجيرات ثوب بري
وحشائش وأودد، بماعتها مشهد آخر شارع مَرْتَر بأشجار «ماحوليا»
مزهره في ضحية هادئة، على جنبه بيوت أليفة ببصاء بأسقف من قرميد
وقرب نهايته بيت معروف نسبياً عن غيره من البيوت؛ يشبهها ويختلف
عنها في آن.

رجاح نافذة طابقه الأرضي تيبس من خلفه سترة فنحة اللون، أما
الباعدة العلوية فتتأرجحها غير مسدلة، وبظهر من وراء زجاجها ما يشبه
رهرة صحمة أو مصباح كهربائي على هيئة رهرة لوتس

البيت مسور بسياج من أعمدة خشبية متوازنة تتسلقها عرائش ورد
أحمر، وريبه مثبت أعلاه قماشية بعينين مندهشتين وفم معق بحزم.
توقف تاكسي أمام البيت، خرجت منه كاميليا، سحبت حقيبة
ملايسها إلى المدخل، ووفقت لالتقاط نفس عميق. أنعشتها برودة

لهواء، فتحسست معطفها الثقيل، وحقق من إحكام الكوفيه الملفوفة حول رقبتها، ونظرت إلى سماء غائمة.

بعد لقاء أول في براغ تبعته مئات الرسائل الإلكترونية لمبادأة، هي هنا مدعوة لقضاء أسبوعين في ضيافة آدم وزوجته روز.

خطوات قلبه وأصبحت في مواجهة الباب تأمل الدمية القماشية، دقت دقتين متاليتين ففتح آدم استقبلها بحماسة وحمل الحقيقة منها مفسحاً لها الطريق لتدخل من خلته ظهرت شقراء تتسم بتردد، خمنت كاميليا أنها روز.

كما برع المشهد في خيال أولجا فجأة، احتفى دون مقدمت. عادت لواقعها لم تعرف كم مضى من وقت منذ دخول رقيقها العاصف إلى عرفته، لكن من معرفتها الطويلة به تذكر أنه لن يعدها إلا بعد ساعات، مسقيها هائلاً في الإصابات لغناء ماريا كلاس، المرأة التي يمثل صوتها الموسيقى التصويرية المصاحبة لحبائه كلها، كأنه لا يمكنه لعيش من دونه. يتنقل بين أدوارها. «فلوريا توسكا»، و«هدام ترفلاي»، و«نورما» و«كارمن»، لكن مشهد الموت في «لا تراياتا» بأسره على نحو خاص مع الوقت، صارت أولجا تزعج من الصوت الساحر، وتضيق بصاحته المتوفاة منذ عقود.

«هل تنمو أشجار الماحنوليا في سيدات؟» حطرت السؤال سالها فجأة، ففضلت التأكد من هذه التفصيله لاحقاً.

التقطت حقيبة يدها وقررت الخروج لشرب بيرة باردة في أحد المقاهي المنتشرة على ضفه العلتافا. لطالما ساعدها الخبوس وسط الناس على تجديد أفكارها. أحب مصوصها إليها برغت بذرتها الأولى في مقهى «سلافيا» أو «اللوهر»، أو ببساطة تمشي بمحادثة لهر، أو يجلس في مقهى ملاصق له.

عازف يحدق في أصابعه

عارف اسانو، ولنحتر له اسم ساندور، أحضله صوب باب غرفته وهو يُصَفِّقُ خفيه.

لم يتعمد إثارة كل هذه الصبغة.

أسدل الستائر، فإذا بلغرفة فضاء من صيب كشم، والمساء كأنما حل فحاة تمدد فوق سريره، وحدق في السقف الرمادي. تلاشت أصوات الحارح. اقتحمته لدة غريبة عبيه؛ لدة قديمة مختلصة من ماضي لم يعد له وجود؛ ماضي ربما لم يوجد قط.

«حر في عربي والعلم محسوس خارجة»، تتمم في سره، فتصاعفت لديه. لم يقصد إزعاج أولجاء يعرف أنها مشغولة بقصه تكتبها عن ناحية من مذبحة ما. يلاحظها من وقت لآخر منهكة في تأملاتها أمام شاشة الحاسوب؛ تكتب قليلاً وتشرذ عالماً، فلا يسأها عن شيء.

لا تطبق أحد، بجوارها أثناء لكتته في ما سبق كنت تراقبها تدريباً على الليانو بل وتلهمها، الآن وفي حالته هذه يحاول ألا يكون مرثياً طالما تكتب، وفي المقدين تنصرف هي ككائن أثيري وقت تعلقه هو على ذاته. حين أعلق غطاء ليانو بعنف وحمود قصته في خشبه لم يكن واعياً لما حوله.

أغمض عينيهِ وشد الغطاء وحاول النوم.

لا يكف ساندور مؤحراً عن التحديق في أصابعه، لم يعد فقدان
القبضة على العرف هاجساً محتملاً إنما واقع مقيم اعتاد رفع يديه عن
مفاتيح البيانو وتحريك أصابعه في الهواء فتطويعه بمرونة مذهمة، لكن
ما إن يضعها مجدداً على المفاتيح حتى تتحسب ولا تعود قادرة على
الحركة.

أثناء نومه، يعاوده حلم يشعر به كحقيقة من فرط تكراره. يخرج من
مبنى عتيق في شارع شبه معتم ملتف حول نفسه كأمعاء أرنب. الشارع
مرصوف بأحجار مصقولة، يسمع ساندور وقع خطواته عليها كدقات
قلب عملاق، لا أحد غيره في هذا الفضاء، ومع هذا يشق من أنه مُطارد
في انحناءات الشارع المفاجئة بظهر له ثلاثة رجال ملابسات
داكنة، يقربون منه ويصربونه تركّز ضرباتهم على أصبع يديه وجوههم
غاضبة وتعابيهم في مهمتهم يدعو للإعجاب

يتناهى إحساس بالفرق، لا يعود قادراً على التنفس، يُهَيِّأ له أن أصابعه
مفرودة على سطح رخامي، وأن مطرقة صمحة في طريقها بهشيمها،
مطرقة لا تصل إلى غانثها وإن كانت نلقة في هول ترف و انتظار دائمين.
من سنوات شبابه، يطل عليه وجه امرأة حنونة، عينها تحديداً بالغت
الجمال، معبرتان وذكيّتان. يغمره ارتياح مؤقت إلى أن يتدكّر صرخة
نذرت عنها، وهلع شؤء ألقي عينيها.

أمام كوخ على أطراف غابة «حيمكي» كان يسيران معاً الأشجار
لقريبة تذكر كائنات تقتلها العزلة، وأصوات طيور غامضة تؤطّر
خطواتهما ثم امتدت يد لتسحب المرأة بعيداً عنه، وقبضة قوية هُشمت
وجهه. قل أن يغيب عن الوعي، وصلته نراشقات عاصفة واتهامات
متداولة بلغة نزعجه إيقاعاتها وموسيقها

في المستشفي، حيث وجد نفسه حين أفاق، كانت الصدمات تغطّي وجهه وأصابه لم ير المرأة بعدها، ولم يعرف ماذا حدث بينها وبين زوجها. لم ترد قط على رسائله العديدة، حتى عندما كتب لها أنه سيعاد مدينتها ويرغب في لقاء أحير معها

و لأن، يترأى به طبعها بينما يتحسّس الندبة الباقية تحت عيه اليمنى ويكرّر في أصابعه، وهو راقد في فراشه. يخائيه وجهها مموّجًا بخار ماء أو محتفياً في سحابة من دحان يتلاعب بالملامح فلا تنكشف له سهولة يخطر له أن المرأة من احتزّه وأن الحادث مستل من فيلم قديم عاب عن ذاكرته، أو رواية قرأها وتوارت بمقابيلها الأخرى في رواية معتمة من رأسه يربحه هذا الحاطر، لكنه لا يفسّر لدبة أسفل عيه، ولا أثر الكسر القديم في أنفه.

يصحو من نومه ليجد أن طُمة انغرفة ترسّخت يضيح المصباح المجاور لفراشه، ويعتدل حالسًا. هدوء تام لا بد أن أولها خرجت. بسدعي لقاء الأول بها، تزوره الذكرى كشذو بٍ وشطيط:

حمل رسمي في منى بأعمدة مهمة ومنحوتات فحمة وجداريات مثيرة للتحيل شوء في لحديقة و«بوقيه» مفتوح في اشرفة شمبانيا ونبيلة، وصبوف من جنسناات مختلفة. مرح وصحب، كؤوس تُقرّع وموسيقى تشكّل خلفية صوتية لها يجري.

يقف، مرفقه الأيسر مستند إلى طوبة مرتفعة، وبده اليمنى تحمل كأس شمبانيا، وفي الجهة الأخرى من الشرفة المزدحمة، كنت ثمة عينان ررقاوان تتأملانه بانتسامة مُشعة

لم تتعارفا كما يفعل عريان، بل مثلما يحدد صديقان حميمان

علاقتهم، بعد أن انقطعت بهما السبل لسنوات يدهشه الآن تذكر أن
حسديهما كانا شبه ملتصقين معظم ما تبقى من الحفل، وأنها تحسّست،
مراة، الأثر الباقي من الكسر القديم في أنفه، والبدبة أسفل عينه

كان وجهها معلقاً بتعاطف، تحافظه لمحة من إحساس مهم بالذنب،
أما هو فكان سعيداً وحيّاً كما لم يكن من قبل، أو بالأحرى تماماً كما كان
في ذلك الصباح البعيد، مع جميلة العيين ذات الملامح المستخرجة من
ذاكرته، أثناء سيرهما - رعم برودة الجو - أمام الكوخ الباقى، حيث غابة
معتلة وهواء مثلج يكاد يجمّد أعصان الشجر

هل ذهبت أولاد معه إلى شقته بعد الحفل؟ براو غة التفاصيل. يتدكّر
سيرهما معاً وذراعه تحتضن كتفها في شارع صيق بالمدينة القديمة،
يستحضر حسديهما عريين في سريره وبما كان لا يعرف الدريح أو
المسامية.

لظالما استقرّ شبقها وتحذّاه، بدا جواناً مدهلاً على عشرات التجارب
المحيطة، على انتصابات صالحة لا تُحصى وشوق إلى ما لا يستطيع
تحديده أو تخيله.

كانت عاريه لا تزال حين أراحت رأسها على صدره، ومسحبت منه
سجارة أشعلها أنفّه لتشاركه تدخينها يخامرهم الآن شعور أنّهما لم
يكونا وحدهما تلك الليلة، شاركهما الفراش جميلة العيين وروحها
لعاضب. أكثر من مرة اختلطت عينا أولاد المتسعدان لذة واستمتاعاً
معينين قد يمتين اتسعتا هلقاً حين فوحنا بوجه متعهم وشتائم هستيرية
لاحقه أيضاً صوت راعق ووقع نكمات تُحطم وحنها يشبه وجهه

في محاوله لا قاصده من أفكاره وجذبه للخطيئة المشتركة، أخذت
أولاد تقبل أصابعه وتمصها واحداً تلو الآخر، كما قُنت اسديّة أسفل
عينه وأثر الكسر القديم في أنفه.

صدر هذا انتقيب الطقسي، المصحوب بدموع غير مبررة، شعيرة دائمة في الحسن بينهما، مثله مثل، غماصه لعيبه في لحظات ودرة كي يطرد من رأسه منظر عيين محتبتين خلف نظرة هلمة - تطل عليه من مصبه - لصاحبة الملامح المتبحرة التي سماها «قيفا»، وأخبرها أنها خلاصة كل النساء، والحقيقة أنه لم يرغب في صاوتها باسمها المصرد لديه بروجها وعالم معلن لا يضمه ولا يعترف به لكونه حبيباً سرياً.

ول إن لها عيني «فيبيان لي»، وحين عترضت بأن لون عيبي أزرق في حين أن عيني «لي» خضراوان، أكد لها أن بونتهما الأصلي أزرق ثم تغييره نفسياً إلى الأخضر في «ذهب مع الريح» بيلاتم شخصية سكرليت أوهارا كما كتبتها مارجريت ميشيل ثم يكن مؤكداً من مدى دقة لمعدومة، لكنها، رفته حين قرأها في محلة ما

الآن يحتفظ اسم فيبيان وسكاريت في ذهبه ويدلان على من يرافقه طرحتها كخرافه لن يعلم أنداً حقيقتها، ولا مدى واقعيتها.

علاقته بها تأتيه، دوماً، محاطة ببحار ماء كثيف، يشبه ذلك البحار الذي كان يعطي الحميم في طفولته، بحيث يحجب المرأة والحوادث، فلا يكاد يرى نفسه.

كبرق لم يثبت أب تلاشي، استعداد أن أولجا حين التقت هي منتصف طريقه إليها ليلة انحصار بادرته «وحشتي جداً!». وأن هذا بدا له وقتذاك طبعياً بشكل ما قال لنفسه يسما يعتدل أكثر في جلسته على السرير، إنه يحب الكنتات والفسادات لاندفاعهم ومحالفتهن للقواعد المتبعة من الآخرين. من غير كاتبة يمكنها معاجاة رجل تلتقيه للمرة الأولى سحبة مماثلة!

يحب فيهن أيضاً، حياءاً، حمت يدفعهن للإيمان بأبعد الأكاديب عن الواقع، وانتظر إليها كاحتمال وارد. موهبة لعيش في لوهم.

من وجهة نظره، سمَّع أولجا بموهبة مضاعفة في هذه النقطة، لكنه - في السابق - كان له مكان محفوظ في عالمها الوهمي، لن يكون مبالغاً، أو أكد لنفسه أنه مثل مركز هذا العالم، أما الآن، فيكاد يثق من أنه تهرب من وجوده لتقبل في جانبها إلى عوالم وهمية جديدة.

هز رأسه ميتاً ويساراً كأنما يرفض فكرته الأخيرة لم يعد يحب رثاء الذات بعد أن صيَّع طفولته عارفاً فيه -

طفل وحيد يعيش مع وائده بمفردهما بعد أن هجرت الأم البيت دون كلمة ودع أخيره أبوه أن أمه في الجنة، وأنها ستورده في الأحلام، وستابع تقدمه في دروس الموسيقى من خلف السحاب، فقضى وقته متحيفاً وسيلة مثالية توصله إلى السماء، ومتأملاً صفحتها الزرقاء لمرر كشة بالسحب والغيوم، علَّه يلمح الوجه الحبيب العائث يتدعه عن بعد.

في تلك السن، بدت السماء في المساوول رعم بعدها، إذ لاحت الأشجار السمقة كنَّوج موصل إليها.

أمن لطفل ساندور أن كل ما يلزمه هو إتقان تسلق الأشجار، وما عدا هذا تفاصيل هامشية نسلق شجرة كستناء، كتدريس أولي، ولم يستصيع لنزول. طن فوق أحد أعصابها، حتى عثر عليه والده واصططحه إلى البيت. أوقفه أمام مرآة طويلة في الصالة وطلب منه، رفع كفيه أمامه

«هذه الأصابع هي أغلى ما تملك!»

نأداء درمي لم يكن يستغنى عنه، أحبره أبوه، أن مستقبله معلق بأصبعه، وأن الشبطة وشعل القروود سيعرضه لخطر الإصرار بها، وبالتالي مسحون أمه في عباقتها لأنها لا ترغب في شيء أكثر من سماع أنعام تدرساته على العرف يسما تجلس فوق السحب مؤرجحة ساقها بالطمع لم يصف الأب جلستها على هذا التحز أو بهذا التفصيل، لكن

ساندور لم يكن بإمكانه تخيل وجود شخص في السماء، لا حاساً فوق
السحاب بينما يورجح ساقيه مستمتعاً.

لم تنته كلمات أبيه عن حلمه بالصعود إلى السماء عبر الأشجار،
لكنه فقط أحاط محاولاته لتسلقها وكذلك سقوطه المتكرر من فوقها
بالكتئاب، ولم يردعه عن الأمر سوى حارتهما

المرأة التي أصبحت صفة شبه دائمة على بيتتهما، تحلس بالساعات
مع والده، وتحضر بهما الطعام، وتجالس ساندور حين يتأخر الأب في
العودة مساءً، لم تضيق فرصة للتصيح للصغير بأن أمه هجرت أسرتها
وأنها تعيش في مدينة أبعد من السماء.

في البداية لم يفهم الأس ما ترمي إليه الحارة، لكن المعنى وصله في
سهيبة. حمل نفسه مسؤولية هرب والدته، حتى أنه لم يكن حينها
يكفي لدفعها لبقاء معه دون قصد منها، دفعته كلمات الجدة للتخلي
عن تسلق الشجر، ولتماهي مع حلم والده بأن يجعل منه عازف بيانو
شهيراً.

لم يعد هذا حلم بلائب وحده، بل محور حياة ساندور. أن يصح
عزفاً مهمماً يعني أن تصل أحلامه إلى أمه يوماً ما، أن ثمة أملاً في لقائها
من جديد.

لم يوقف الأب أمام تحول ابنه لمفجئ، حاول فقط معه من إلهاد
نفسه بالتدريبات، طمّح إلى سريته على الاستمتاع بالتعب، أن يصير هو
والبيانو كياناً واحداً منسجماً.

لم ينتبه إلى أن صغيره اعتد الوقوف أمام المرأة الطولية ورفع كفيه
أمامه لتأمل أصابعه الرشيقية، وقتها لم يكن يحقد فيها بهلع، بل يتفحصها
كأنه مستحير، بلمدى يدي سيصل إليه يوماً، وستبوح به بأنها ستقوده
إلى أمه في مهرجها للعيد، وتحمله إلى عوانم لم يحلم حتى بلوغها

لم يعترف مسندور، حتى لنفسه، بأن جرّة من حاذية المرأة التي سمّاها «فيفين» في عييه يرجع لكونها أمّا لصغير، رآها لأول مرة تنثرّ معه في حديقة «جوركي» بموسكو. حين توطّدت علاقتهما، لاحظ حرصها على ألاّ تشير إلى زوجها وطفلها وهي معه، حاول مراراً حرّرها للكلام عن ابنها محذّلاً، لكنّها كنت نازعة في انْتِهَرَتْ مما لا تريد مناقشته

أخبرته يوماً أن الصوت كان المدخل لتعلقه به صوته لمشروخ قليلاً هو أول ما حذبها إليه. انصوت ذو السرة انكسول - كأن صاحبه سيقط لنز، من الوم - مثل وعدا بمتعة قصوى ولذة لا حدود لها، وكان شمساً دافئة حوّلت موسكو بطقسها مالح البرودة إلى جزيرة تغمورها أشعة الشمس بلا انقطاع كانت تنظر بكلماته الهانمية شوق أكر من شوقها للقاء بهم المحتلّة، عبر الهاتف اعتادت الإصغاء بكل حواسها للهمس المنغوي المسمعت من الطرف الآخر، همس يحوّل لشخص بكامه إلى محض صوت متشوّق مثير.

ما لم تخبره إياه أن زوجها كان صديقاً للصمت، حتى في أكثر لحظاتها حميمية لظالما كان الجنس بينهما أداة صامناً، لا مجال فيه للهمس أو حتى اللهاث، فقط سكوت تام. لا يعني هذا أنه كان خديناً من المتعة، لكنّها لظالما اشأقت لتعبير أكثر صحفاً عن الرغبة والحب، لمس تأثيره على شركتها عبر تغير اختلاجات صوته وانقطاع أعاسه وتحول البيرة الوثقة المسطرة عادةً إلى لهاث متسارع مبجوح.

الصور النسبة لها، كان الوسيلة المثلى لقياس المشاعر والإعلان عن الاشتها، وبيرة ساندور المفعمة بالعاطفة، تلك المخصصة لها وحدها. كما لاحظت - كانت علامتها الأولى على تعلقه بها



لم يعيش ساندور في مدينة ساحلية قط، هو متأكد من هذا!

شأ في مدينة شققها نهر، ولا يطيق العيش في مكان خلد من الأنهار،
ربما هذا من أسباب حبه سراع لفلتافا يشعره بالأمان، كأنه رحم يشفق
للعودة إليه و لغرق فيه.

يبرغ في ذهنه الدانوب كنهر يتهاذى ماؤه في مدينته الأم، تتركم صور
ومشاهد قديمة في ذهنه: عمارة مهبة من عصور مصت، مواصلات
عامة متהלكة، مقام متقشعة، ومجمعات استهلاكية لا تعترف بالكماليات
الفاخرة.

غير أن النهر هو ما يجذبه للمكان، وما يشكّن عمودًا فقرًا لحبة
تركها خلفه، وذاكرات متلاعب به وتسخر منه.

فكر مرارًا في العودة للاستقرار في مدينة طفولته وشبابه، لكن زياراته
العابرة لها، خلقت في حلقه مرارة مقبمة، لذا كل شيء هناك معابر المكرته
السابقة عنه ومضدًا لها. لاح له مسقط برأس كمدينة رائدة، احتفت
من على وجه الأرض، وبقيت منها نسخة مهرورة وباهتة، تُسوّق بسياح
العربين في جولات معادين من قبيل "رحلة إلى الرمن الشيوعي"!

جولات تُقدّم المدينة من خلالها كمكان ذي ماضي رمادي، لم يعرف
سوى المعتقلات، والطغيان، وبكاء المقموعين والضحايا. تُعيب هذه
النسخة لمتحيزة، سعدات ماضيها الصغيرة، وتفاصل حياة يومية عمرها
الذفء، وعالم حميم رغم صباه أو ربما سسه، وتتكرّر لتريحه الشحصبي
الخارج عن سمات الكابوس المفترض.

ربما كان كابوسًا فعليًا، لأن أب ساندور لطمن كان عدلاً عنه، باقتصر
عالمه على أبيه ورفاقه، والكثير جدًا من الموسيقى، وطيف أم تحفت
ملايحها في ذكرته كل يوم عن اليوم السابق له

تحلّص الأب من كل صورها باستثناء وحدة بالأبيض والأسود
علقها في غرفة ابن رأى فيها امرأة جميلة شعر دحم وعينين واسعتين

اللتقطهما المصور المجهول في لحظة سهاش، امرأة لا تشبه تصوراته
عن من دارقته وهو لا يكاد يعي شيئاً عن العالم من حوله

بفصل هذه الصورة الوحيدة، وتلك النظرة المندهشة، رسم مسطور
«نورتريها» خيالاً لأُم مفترضة، تفوقها الدهشة كجواهر تشني عليه
شخصيتها

تعريضاً لمغيب الفادح لصور وألذته عن البيت، جمع صوراً متنوعة
لماريا كالاس، معبة الأويرا اليونانية، برور بعضها، وعلقه في أماكن
بارزة لم يعترض الأب، وربما لم يتسه إلى أن انه رأى في كالاس البديل
للمرأة الغائبة والمغيب عن عالمه.

لم تكن شبه أمه إلا في لون الشعر والعينين، لكنه رأى فيها ملمحاً من
فكرته عن أمه كما بدت له عبر صورتها الوحيدة المعقدة في عرفته ثمة
هشاشة محبأة بحاية حلف وأحمة من الثقة بالنفس، وحزن فادح بحجم
على كلتا المرأتين كهالة من سوء قاتم.

في حله والدته. كان هذا يخالف كلام أبيه القليل والمتساعد عنها
لظلم صورها كأميرة قوية مرحة تتع ما يمليه عليها قسها وعرائرها،
غير أن صورتها الوحيدة بالأبيض والأسود تحكي قصة مختلفة وفصل
ساندور أن يصدقها.

لم يتزوج أبوه بعدها، وإن لم يخل حياته من النساء، بعضهن حتمى
سريعاً، وقبيلات دُمن أكثر كان ساندور يعرف بالعبارات بطرق غير
مشرة، إذ حرص والده على عدم إرباكه بتفاصيل علاقاته، أما من
استمررن أكثر من غيرهن، فكان يتعامل معهن بحذر، باستثناء الحارة
التي فرصت نفسها صيفة شبه دائمة على لبيت حتى يشتت واحتفت
كالأخريات.

حديقة الورد

في حليستها على المقعد، برحامي بالحديقة العامة، تتلذذ كميليا
بقبلات أشعة الشمس لبشرتها، تشرب الأصوات المتداخلة حولها
صوت رتطم إطارات سيارات بعيدة سبباً - بالأسفلت، بغير شاحنة
يشه سعال شخص بالغ المرض والإعياء، أصوات شرية مندغمة وغير
واضحة، تغريد طائر لا تعرف اسمه، لكن صوته يصيب قلبها برعدة
ملأى بالترقب والحماسة.

تعمص عينيها، فيتجسد في ذهنها بيت أشبه بقلعة فوق تل. لثواب،
تنجح في تشييده - في مخيلتها - من عدم. ينبي على مهل، ويوحىها
مثل هيكل صلب معلق بين السحب، ثم لا يلبث أن يخاتلها، فيبدو
كنشكيل من ضباب يهر على خلفية داكنة، قبل أن يمعز في الغياب حد
لتلاشي، ويظهر بدلاً منه بيت أكثر ألفة في صاحبة هادئة، أمامه ينبعث
شرع مُرتر بأشجار ما حوينا مزهرة، ثم تتراص بيوت فخمة، البيت تلو
لآخر، على جانبيه

في الطريق إلي البست الأليف المُشيد في حياها، تغيم السماء - لتي
كست قبل مرهة زرقاء - وتحتصن قرميده، ثم ترسم بهدوء حديقة ورد
مزهوة بأنوارها وروائحها في فنه لحلمي

يتبدى لكاميليا سور خشبي تسلفه عرائش ورد أحمر، وتتوسطه بوابة
قصيرة موارية يقود إلى مَرَحَة هي كل ما تنصح - لأول وهلة - من حديقة
يمتد معظمها خلف البيت.

أغلقت كاميليا البوابة خلفها، وصعدت ثلاث درجات ليواجهها
اللب المميز بورود محفورة عليه كإطار يضاوي داحل مستطيله أعلاه
دمية قماشية تبدو كقطعة معلقة في «فاترينة» عرض.

افتتح الباب لتحدد نصها أمام آدم بعد قرابة السنة على لقاءهما الأول
ومئات لرسائل الإلكترونيّة المتبادلة من حلعه لمحت شقراء تصغره
بسنوات، خمنت أنها زوجته روز.

وضع آدم حفيه كاميليا جات، حياها بحرارة مُقَلَّلاً وحنيها، مل أن
يتسقى حانياً كي تدخل، فيما استقبلتها روز بابتسامة مترددة وعيس
فصوليتين

أول ما نفت نظر كاميليا إلى جانب أدقة الأثاث، كان التحف الموزعة
بدوق في أنحاء البيت معظمها عُلب صغيرة خشبية وحرفية وقصية
موضوعة هنا وهناك بقوصوية محسوبة. اعتزبها كاميليا علامة إيجابية،
لأن الهدية التي أحضرتها للروحين كانت صندوقاً صغيراً مزيناً بالصدف
ومكسواً من الداخل بالقטיפيّة الحمراء اشترته من «حان الحليني» ومعه
تمثال إيزيس المجنحة.

لم يخطر ببالها أنهما من هواة جمع العُلب المشغولة بعناية والمنتومة
لحضارات مختلفة، فقط اشترته لأنه أعجبها وانتوب شراء صندوق
مماثل لنفسها بمجرد عودتها من السفر.

أحضر آدم، من فوق طاولة قريية، طبقاً خشبياً على هيئة ثعبان ملتف
حول نفسه، قال إنه هدية من صديق كان في زيارة سياحية للأقصر قبل
سنوات، وسأل كاميليا عن رمزية الثعبان في الحضارة المِصرَوية، فلم

تجد ما تحب به سوى أنه تميمه لحلب الحط، شرد لثوان مقيمًا إيجانتها
ثم هز رأسه دوما اقتنع. بأمل تمثال إيزيس الممجحة، ووضع هو
وصندوق الصدف بجوار لشبان الدافري.

في الصالون، حيث تناولوا قهوتهم بعدما بقليل، كانت هناك ألعاب
أطفال، موضوعة كأنها جزء من ديكور المنزل. قالت كاميليا لنفسها
«ربما تحب طفلهما»، مع أن آدم لم يذكر قط أن لديه أطفالًا.

بينما يندردشون في موضوعات أمة أثناء تناول القهوة، خضعت الرينة
امزركشة للسهم الداخلي لمؤدي للدور العلوي نصر كاميليا، الألواح
الخشبية البيضاء لإطار السلم كانت مزينة بأقمشة ملونة عصية لامع كأنه
بقايا عيد ميلاد طين.

صخب الأولون وتعددها، لم يقلل من تناسقها، كما لم يتناقض مع
اندوق لكلاسيكي إلهادي لببيت كله أثناء صعودها للحجرة المخصصة
لها بالطابق الثاني، انتهت كاميليا إلى أن الرينة، غير واضحة اسمعالم من
بعيد، عبارة عن عدد كبير من لدمى لقماشية المربوطة معًا والملبسة بفن
على الأعمدة الخشبية لإطار السلم.

عرفة اليوم المخصصة للضيوف كانت هادئة ومقتصدة الديكورات
ستترها رتبتي فاتح وسجدها بية على الكومود دوزق ماء به
شرائح ليمون، والهواء معقّ بمزيج من روائح بودرة «التك» وشامبو
«جونسون» للأطفال ورائحة ثالثة يصعب تمييزها.

الحمام المصحق بالعرف، صم أكبر كم رأته كاميليا مجتمعًا من
المنظفات والمطهرات ومرطبات البشرة. الأنواع غالية الثمن ومحتارة
بعناية والفوط تكاد تشع من فرط لطافة ولجدة

وهي في صياغة آدم تحول سمها، على لسان روي، من كاميليا إلى
كاميلا. بعد محاولتين لفت نظر مضيقتها كي تنطق الاسم بطريقة

صحيحة، استسلمت كاميليا. وفي كل مرة كانت تسمع فيها المرأة الأصغر تندبها يكاملا يحيل إليها أنها تقصد شخصاً آخر.

«من حيث أتيت»، هل يزورون الورد؟ هل يدركم سداب جديدة؟ هل يمكنك السير في الشارع بلا غطاء رأس؟ أمثلة عديدة تشير إلى فصول رور نحو ذلك المكان الضبابي العامص المسمى «من حيث أتيت» في البداية كانت كاميليا تصحح لها: «مصر»، ثم توقفت عندما لاحظت أن رور لا تكاد تسمعها.

«لا تتأخري في الحارح، ستغلق البيت في العاشرة مساءً من حيث أتيت هل أنتم معتادون على السهر لوقت متأخر؟».

تسأل رور، فيبدو سؤالها كانهام.

«أحياناً نسهر».

تهز رأسها باهتمام كأن إحابة كاميليا ساعدتها على حل لغز ستغلق طويلاً على فهمها.

في يومها الثاني في ضيافتهما، قاد آدم كاميليا إلى الحديقة الخلفية بينما تجهر رور الإفطار بامشاء شجرة ضخمة تتوسط المكان ومعلق بأحد أغصانها أرجوحة، لم تجد سوى الورد؛ أنواع عديدة منها؛ ورد ناري، هايريدبي، سيتوفيليا، دمشقي، بجيري.

«الورد زهرة روز المفضلة!»

قال آدم بلهجة اعتادها لم تمنهم مبررها، وهز لأرجوحة ببطء.

«روز مكتنية ورواجا يمر بفترة اضطراب».

خطر لكاميليا لاحقاً أنه دعاها لزيارتها من أجل روز، ربما توقع أن

مضني وحودده بعض الإثارة على حياة زوجته. صديقة فتراصة قادمة من بعيد وتنتمي لثقافة مغيرة!

هل أحطت رور حين اكتشفت أن ضيفتها لا تختلف في مظهرها عنها كثيراً؟ هل توقعت شيئاً وفوجئت بأحر؟ لا تعرف كاميبيا، لكنها متأكدة من فضول مضيفتها نحوه؛ فضول مهذب خحول، لكنه عميق وواضح. سألت عن كيفية معرف زوجها على المرأة القادمة من بعيد، وبدت مذهشة حين أكدت الأخيرة ما سبق وذكره آدم من أنهما لم يتقيا قبلاً سوى مرة واحدة.

ذكرت رور حسده أنها كان من المفترض بها السمر معه إلى سرع في رحلته تلك، وألعت سمرها في آخر لحظة بسبب طرف طارئ.

الصور المعلقة على الحوائط لم يكن بينها ما يخص عائلة آدم، لم تعرف حوائط البيت سوى بوالدي رور وشقيقها، إضافة إلى الكثير من صور رور في مراحل عمرية مختلفة، أمام عدسات الكاميرا كان ثمة رور أخرى مشرقة ومستهجة بعينين لعونتين وروح منطلقة رور محنلة لا علاقه لها بالمرأة التي استيقظت مرتجفة هرباً من حلم معلق بالبياض، في الحلم، كان الثلج يتساقط بغزارة، كل شيء مغلف بالأبيض لأشجار في الحارج، لشارع بكامله وحديقة اليب.

من نافذة صغيرة أشبه نكوة في الحائط وقعت رور تتخرج على عالم أبيض بدا لها شيئاً متراقصاً على حافة التواري أحسب أنها تواحه الجمال في معناه المطلق، جملاً ذائلاً يورث الأسى كالغيث.

شيء ما أخافها، هي دائماً هكذا في أحلامها، تخاف مما لا يخيف أحداً غيرها، قد ترعها زهرة عريضة اشكل، أو وجه يبدو سمحاً، فلا تمهم - حين تستيقظ - ما سبب لها كل هذا الرعب!

كانت تتأمل كوناً أبيض لا ترال، حين شعرت بيد تربت على كتفها بهموء. التفتت لتجد امرأة رشيقة تستدير للجهة الأخرى، بحيث لم تتمكن هي سوى من رؤية ظهرها وهستانها الأبيض الطويل، كنت ثمة طرحة باللون نفسه ملقاة بإهمال متعمد على رأسها بظهور المرأة نموذ كل شيء بمسحة حفيفة من السي المحمر شس بتأثير «السبيا» في الصور القديمة، فأحست روز بأنها تمشي داخل صورة فوتوغرافية تعود لبدايات القرن العشرين.

تمتعت الغريبة بلا تفكير، سارت خلفها في أرواء البيت، وانتهت إلى أنه بيت طفولتها، أعجبها الحسد الريان وانخطوة الراقصة للسائرة أمامها، لكن قلبها كانت تحتصره قبضة الخوف.

خرجت خلفها، وهبطت الدرجات الأربع الموصلة للحديقة الخلفية، وفجأة اسدارت الغريبة وواجهت روز كنت أطراف الطرحة تعطي معظم وجهها، ثم أراحها الهواء قليلاً لكشف عن وجه بعين دائرية في منتصف أسفل الوجهة، وهم أشبه بقم الحنجر، لا ألف ولا ملامح أخرى. النظرة في العين الوحده كانت ميتة، وخطر بروز أن هذا وجه الموت، وأنها حدثت فيه فمقدت جرءاً من روحها، ماتت قطعة منها وتجمد فص من فصوص قلبها.

بعد استيقاظها ساعتين، وبما تسترخي في حوص الاستحمام المملوء بماء دافئ يعبق برائحة الناسل، وحسدها معطى بفقاقيع الصابون، شعرت روز بارتياح لأن ما مرت به الليلة لسابقة كان حذماً، ثم استولى عليها إحساس فادح بالخسارة والألم لأن هذا الوجه الممت احصر في ذاكرتها وأصبح جرءاً من واقعها لن تنساه بسهولة.

أحست بالعمرة في بيتها، خُبل إليها أن الغريبة بطرحتها وفمها الخنثري تحيط بها، وتتعمقها من غرفة لأخرى.

كانت وحدها بالمنزل، آدم اصطحب كاميليا في جولة بالمدينة، بينما فضّلت هي عدم الذهاب معهما بحجة إصابتها بصدع صدغي، والحقيقة أن كاميليا احتارت ثوبًا أرجوانيًا للخروج به، وروز لا يمكنها البقاء في صحبة هذا اللون لمدة طويلة، وتتشاء ما استطاعت

تمنت لو أنها رافقتهم رغم اللون المخيف، مؤكدة أن الخروج وتغيير المطر، كان سحرهم من أثر حلمها لثُلجي، كما أن مراقبة ملامح الدهشة على وجه كاميليا حين ترى شيئًا جديدًا عندها كانت تُسعدُها ثم طمونة معدية ومحروسة في الطريقة التي تتعاس بها صيفتهما مع العالم من حولها.



من بين كل الهدايا المحملة، احتارت كاميليا لروز تمثالًا لإيزيس رنة انخسوبة وللماء، لم تكن وقتها تعرف شيئًا عن طفلة حاضرة بعبائها، ولم تكن روز قد ناحت لها بمحاولاتها غير الموفقة للحمل.

نهاية أسوعها الأول في ضيافتهما، جرّأت على سؤال مصيفتها عن الأرجوحة في الحديقة والدمى وروشح لطفولة المسيطرة على أحواء البيت، فردت الأخيرة بأنها تحب رائحة بودرة «التلك» وكريمات وشامبوهات الأطفال صممت لرهه ثم حكّت بكاميليا بتردد واقتصاب عن صغيرة رحلت في الحامسة من عمرها، فندمت كاميليا على تفصلها.

كانت روز تأخذ وقتها في تزيين لدمى والألعاب، تستخدم شمسو الأطفال في غسل شعرها ونشر بودرة التلك في فضاء غرفتها لمحتها كاميليا أكثر من مرة تحرك دراعيهما المعقودتين كمن يهدد طفلًا، يحمله، ليأمن، فأسرعت متعدة كي لا تتطغل على خصوصياتها، كما رأتها مرات من التفتدة وهي تهر الأرجوحة، في الحديقة، كمن يؤرّح صقلًا لا مرئيًا.

صحيح أن الصور العديدة، لرور وواديها وشقيقتها، الموزعة على
الحوائط، أو المرتبة بقر فوق طائفة جانبية، لم يكن بينها صورة واحدة
لطفلة، لكن في دُرج، نادرًا ما يُفتح، كانت هناك صورة مخفية لرور في
طفولتها، بشعر أشقر وإطلالة مشرقة، وهي تقبض على رسع طفلة أصغر
بنظرة مترددة كأننا نرغب في الفرار من أمام الكاميرا عند أول فرصة.

صغيرة، تدعى فيوليت، عبرت سريعًا، اعتادت أن تنح رور كظله،
وتشاركها العربة ومحبة الأوبس، وفي لبالي الشتاء الطويلة، والأحواء
العاصفة، كانت تسلك للنوم بحوارها، كتقطعة ودیعة تتمسح في صاحبها
والآن، تسكن أحلام رور، وتُحس على حيتها محولة إليها إلى حياه
تحمي بعض من أثر الواقع، والكثير من سمات واقع حلمي محتلي

في أحلامها، نادرًا ما ترى رور نفسها امرأة فاضحة، في معظم المرات
يكون طفلة تتحرك في عالم أكواته مموءة نغمه لطلال، وفي يدها
شقيقتها، ثم لا تلت أن تختفي فيوليت كأنها لم تكن مرة تكونان معًا في
قطار متبرجج، حال من الركاب، تنتقلان من عربة لأخرى، والصاب
يتصعد حوبهما إلى أن تكف إحداهما عن رؤية الأخرى، وحين يتشع
الضباب، تحد رور نفسها تقصص على يد بلا حسد، تحاول الصرخ
فيحونها صوتها، والعالم من حولها صمت تام

ومرة أخرى، تكونان في مركب وسط مساحات شاسعة من الماء،
ولا يأس في الأفق، فكرة انيايسة نفسها تنتفي، وسيطر على عقن رور
أنهما وحيدان في عالم مائي، تشق المياه وتبتلع المركب والأخت،
وتطمو رور وحدها على السطح، فيما يغلق المحيط على نفسه، تاركًا
لها هلعًا آخر من.

مهما تعددت الأرضية التي يجري عليها الحلم، تصحو مصحوبة
بعيني فيوليت تستجدان بها وإحساسها هي بالعجز عن مد يد العون

في معظم مناماتها، توقفت روز عند سن سبع سنوات، ولم تعدر قط بيت طفولتها، ذلك البيت الذي هجرته أسريها عقرب حيل الصغيرة هليل، في محاولة يائسة للهروب مما يمثله وما يُذكرهم به.

تفكر روز أحياناً، أنهم لو بقوا في البيت لما استحوذ عليها على هذا النحو، ولما أصبح سجنًا لمناماتها.

ثمة حلم متكرر أكثر من غيره: روز تنهض في حديقة ورد، الورود كبيرة ومتفتحة، عبيرها يعمر كل شيء، والسكون مطبق كعادته، حتى يقطعها طنين بحنة تمتص الحريق من زهرة وتنتقل لأخرى، ثم تُسمع استنانات - من بعيد - بصوت فيوليت تردد الصغيرة اسم روز باستعطاف وحزع دون أن يدل صوتها على مخبتها تتعثر روز في حريها بين شعيرات الورد، تستحيل رفحة سترًا ثقيلاً يسمعها من النقط أبعادها بحيل إليها أنها تتعثر في شدى الورد وفي اللون، إذ يُصبح للحلم لون أرجواني يُخيم على الأجواء كصباغ يحضنها عن نفسها.

ما أن تصير روز غير قادرة على رؤية جسدها، رغم وصوح معالم الحديقة الأرحوانية، حتى تبصر أختها رقدة بلا حراك ومغطاة بورد ذات سيفان صوية وأشواك ظاهرة وكما اختفى جسد روز، يغيب صوتها، بحيث لا تقدر على اصراخ. كروح محتجرة في فمقم يضيق باطراد، تتابع الجسمان المسجى أمهما، وهو يعيب في اللون المتكاثف، ويستحيل حلمها تشكيلاً أرجواياً بالغ الذكنة، يحنقها بداخله.

في حديثها الحالية، تفضي روز أوقاناً طويلة، تهدد الأرجوحة، أو تشذب الورد، وتخلصها من أشواكها، وتتعمد قطعها بسيقان عاية في اقصر لتضعها على سطح الماء في أوان عميقة سيباً، أو تثر بتلاتها في أصاق حزفية صغيرة ترين بها الطاولات.

قبل سنوات عديدة، طارت أرجوحة في الهواء، وسقطت صغيرة

ذات سنوات خمس ترتدي فستاناً أرجوانياً لم تصرح أو تتحجب، سقطت صامتة، وركضت من لا تكبرها سوى بعامين، خوفاً من عقاب محتمل من الوالدین. هل دفعت الأرحوحة أقوى مما ينبغي؟ هل تكفي سمطة كهذه لإنهاء حياة وقلب حياة أخرى؟ لطالما طرحت دور علي نفسها السؤال الأول، ولم يخطر ببالها السؤال الأخير

لا تتذكر كم من الوقت اختفت في «الجراح»، خرجت في أمسية على صراخ أمها حين اكتشفت جسد صغيرتها الهامد. لاحقاً ضلت رور في غرفتها ترتعش لا تفهم طبيعة ما حدث ولا أسبابه لسنوات طويلة تانية سوف تشعل تحيل سياريوهات مدينة سطلق من تساؤل بسيط ماد كان سيحدث لو ركضت إلى الداحل لإحسار أمها بما حدث بدلاً من الاحتباء خوفاً من العقاب؟ احتجت الأم إلى نصف ساعة قبل أن تقلق وتخرج إلى الحديقة للأطمئنان على بنتها كم من الوقت احتاجته فيوليت كي تتسرب منها الحياة؟

في مفارقة قدرية مأكرة، وافق ذلك السوم العبد عيد ميلادها، لذا كانت الأم مشغولة في المطبخ بإعداد كعكة عيد الميلاد، بعد قضاء ساعات الصباح في تزيين المنزل بقصاصات مرر كشة ودمى قماشية ملونة رينة ظلت في مكابها حتى انتقلت الأسرة إلى بيت آخر وولاية أخرى بعد أقل من عام.

خفت كثير من تفاصيل البت الأول في دهن رور بمرور السنوات ما عدا حديقة الورد بأدق معالمها، ودمى قماشية بألوان راهية موصولة معاً، وملئمة حول حشب سلم داخلي يؤدي إلى لطابق العلوي

قصة بالغة التعقيد

في البدء، كن هناك مقعد حشوي، في الباحة الأمامية لمسحك كايكا،
الواقع على ضفة الفتافا براء!

على المقعد نجلس كاميليا. رأسها جميل للأسفل، وعيناها مثبتتان
على المسافة بين قدميها المتعديتين قليلاً

كاميليا الحاسنة بجوار آدم هناك، تختلف عنها في حياتها، لعددية
فتقل إنها، في لحظتهما تلك، كانت في أقصى درجات هشاشتها
وصدقها مع ذاتها. وكذلك آدم لم يكن هو نفسه بالصبط، بل نسخة
مقحقة منها، نسخة عالقة في مخاوف ابطلولة وهو اجسها.

في لحظتهما المشتركة معاً لم يكن هناك وجود لأحد خارجهما
اختفى لعالم المحيط بهما وغرف كل منهما من هلاوسه وأسرره الأكثر
عمقاً. كانت «رور» مجرد فكرة مسية، وكان روج كاميليا طيف صمراً
ومبهماً.

في بيته - حين دررته كاميليا بعد نقنهما لأول نعام - تحول آدم في
عينها إلى شخص آخر، حار غير مرئي ارتفع بينه وبينها لم يأت على
ذكر جدته أو مخوف طفولته، لدرجة حيل لكاملها معها، أن يءءهما
الأول محض أو هام.

لم يكن فيه شيء من هشاشة طفل أحب «لا فكرافت»، وحاف من عوالمه في آن.

كاميليا أيضًا بدت له مختلفة عن ذكرياته عنها لم تعد امرأة عربية فاحشاته بأدق أسرارها، وأثارت دهشته بطريقتها في قول كل ما هو غير متوقع أو مألوف.

في سياتل بدأ كاملا بتعارفان من حديد مثلث الجسمانية القديمة تاريخاً مشتركاً، غير أنهما لم يعودا شخصين يتحركان في العراق، أو طبعين يهيمن في خيال كاتبة مثنية غارقة في أحلام يقظتها.

بطريقة ما، أصبحا شخصين متممين إلى ظروف محيطية وواقع مأنوف هو روح لامرأة لقطعه وإن كانت عدوثة ومزاجية. وهي صبيغة على يتيهم يردد فصولها تحاءد لا تفهمه.

خُلِّ إليها مرات أنها - رغم كل ما اطلعت عليه من أسرار آدم لا تعرف عنه إلا أقل القليل، كما لو كانت هذه الأسرار لا تمثلها، ولم تشكل شخصيته المعقدة التي صدرها للأحرار. وبالتالي قابض بها يقرب من استمع إليها من طفل قديم اختفى، وحل محله رجل ناجح واثق من ثبات الأرض تحت قدميه.

انتبهت كاميليا، وهي في ضيافته، إلى أن كل ما ألقى به آدم في بئر عقلها من حكايات وحوادث، ينمى إلى طفولته ومراهقته وأسلافه، ولا شيء تقريباً يخص الرجل الذي هو عليه اليوم.

في حين أن معظم ما باحت هي به يتمحور حول حاضره صحيح أنها حكمت عن الركلة القديمة وعلاقتها بأبويها، لكن كل هذا مثل أرضية لشرح كيف تأثرت إلى هذا الحد بصورة أظهرتها وحيدة منهكة وأكثر من عمرها الحقيقي بعشر سنوات على الأقل، وأخبرتها أن حيانها سُرقَت منها دون أن تتبّه.

أردت أن تشرح لأدم معنى أن يكتشف إنسان ما أن حياته سُرقَت منه،
وأنه لم يعيشها، بل عبر بها سريعاً كما لو كانت تخص آخرين!

لا يعني هذا أن الأمر مهم في سريرتها توقن كاملياً أن لا شيء مهم،
ومع هذا تشعر بالخديعة تحاول إقنع نفسها أن لعينين الدائيتين والنظرة
الساخنة والوجه البالغ الإرهاق، كلها أشياء بلا دلالة تماماً مثل ركله أيها،
فالركلة لم تعن أبداً أنه يكرهها. لقد أحبها على طريقته، على نحو عامض
وملتس وسري يليق شراء شخصيته وتعتيده، أو هذا ما يحلو لها أن
تؤمن به في أعماقها، بعيداً عن كل ما تصرح به وتعلنه

في أوقات صفائه النادرة، كان يصطحبها معه في مشواره القريبة،
يقصص على يدها، ويحكي لها عن طفوته ولأعمال المتواضعة التي
أجبر على العمل بها حتى يتمكن من إنهاء دراسته. كان يتوقف أمام أي
«كُشت» يمران به ليستاع بها زجاجة «شويس ليمون»، لم تحرّ قط على
الاعتراض، أو لاعتراف بأنها تكره هذا المشروب، وكل ما يمت للليمون
بصلة، خوفاً من أن يقصي اعتراضها على هدية هشة اعتاد أنوه إعلاها
من طرف واحد، وخرقها لأنفه الأسباب.

تحرّج مشروب كرهه والتظاهر بالتلذذ به كان ثمناً، كما يلبأ أكثر من
راعية في دفعه، شراء دفعات من السعادة المتقطعة، بصحبة أبيها.

في الزيارات العائلية القليلة للأقارب والأصدقاء، كان يبدر بطلب
«شويس ليمون» لصغيرته، حين تُسأل عما ترعب في شربه
«مشروبها المفضل! طالعة لأبوها».

يبدو محوراً لسبب تحبه الابنة المكتفية بهر رأسها تأكيداً على
كلماته. لم يكن لديها وقت للفهم ولا رعة فيه في لحظات مماثلة
كنت ترى نفسها ذكية رشيقة سريعة اللبيرة، فمؤكد أن أباها الراصي
عنها، ولو مؤقتاً، لا يضر إليها في تلك اللحظة كـ«دبدوبة» بطينة

الحركة والمهم، كما اعتاد أن يعايرها، حين يغضب منها. كان ينقلب عليها فيتحول البيت إلى زنزانة صيقة ومعتمة

البيت! «الفيلا» الموروثة! حنة عن دول ومصدر فخرها، لم يكن بانصط بيتاً لكاميليا. كانت تشعر بمافسة مكونة يسها ويب كل شيء في المكان، منافسة هي دوماً الطرف الخاسر فيها

ليس طبعياً أن يشر فلك بيتك، الرحم المعماري الذي يحوي، مشاعر سليبه أو يورثك إحساساً بانعدام الأمن». هكذا كانت كاميليا تردد لنفسها، فيدو لها مرل طفولتها وصباها كهيكمل نقص بعيد عن دفء البيوت لم يكن إحساساً وهمماً عاشت سنواتها في «الفيلا»، وهي موقنة بأن لجدران والطاولات والتحف والأشيكاب، أهم سها عند أمها لم تكن دولت تكف عن التذكير بأهمية هذه الأشياء لديها غير مسموح لعنيتها بالاقتراب من الصالون الأويسون، أو لمس تمثال الروبر المرمين توقيع نحات معروف، ويوم كسرت الصغيره مزهرية من كريستال بوهيميا المنخب، تعنت لو أنها لم تولد فقط، لأن أمها استحالت كأنها هستيرنا لا سبيل لتهنئته، تذكر كاميليا لصبعه الأولى واللطمات التابة لها حيناً استجبت لعرفتها سهكة، ولم يُسمح لها بالخرج منها لثلاثة أيام تالية.

بعدها كان عليها أن يستمع إلى أمها وهي تتحسر على امرهريه الثمينه من وقت لآخر، كانت دوماً تحضم وصلتها تلك للإشارة إلى أنها بعشق الفحامة والاحمال، فتمنى صغيرتها لو كانت فخمة وجميلة دون أن تفهم بالضغط كيف يمكن لإنسان أن يكون فخماً، بدت لها انصفة ملائمة فقط لأشياء في برودة الكريستال وتعاليه

لسرقات عديدة، كان الجراح الحبي غير المعنى به من «الفيلا» ملجأ كاميليا الوحيد، تحديقاً الصالة شحيحة الإضاءة حتى في

إنها والشايث مشرعة فيها اعتدت الجلوس للقراءة لساعات، أو
الاعماس في بعثها المدوَّحة، حيث تدور سريعاً حول نفسها حتى تميد
بها الأرض، فترتمي على البلاط غير واعية لما حوَّها لدقائق، قبل أن
يكف العالم عن الاهتزاز ويستعيد ثباته.

لم تستطع كاميلب قط فهم طبيعة الوصع لطقفي لأسرتها « قصة بالعة
التعقيد » لطالما اختصرت الأمر على هذا النحو. أمها حفيصة ناشا كان
يملك إقطاعاً ضخماً في سواهج، لكنها نشأت في عائلة ميسورة، لا أكثر
ولا أقل، بعد أن أمتت دولة يوليو معظم أملاك جده.

عندما توفي والداها كان كل م ورثته دولت منهم عشرين قدراً
في المحافظة الحنوية، اعتادت أن تعيش على إيرادها السنوي وعلى
ما سبعة حين تضطر - من مجوهرات أمها وحديثها، محافظة قدر
الإمكان على صداقات عائنية موروثة من أيام العر، حتى وإن لم تعد
نداً - من الناحية المادية - لهؤلاء الأصدقاء

أما والد كاميلب فيسكن في لوسط اجتماعي أسط. كان يحلوه وصف
عنه بالعصامية كان ماهر في كسب لقود، وأكثر مهارة في سديده.
لم تعرف له سته عملاً ثابتاً، كان يتاجر في السيارات. يشتريها محطمة،
أحياناً مجرد هكل حديدي أو قطعة خرده، ثم يحددها ويبيعها بسعر
أعلى. كان من المعتد روثته يندب السيارات كما يندب غيره القمصان، من
لا يعرفه جيداً، كانوا يظنونه بملك عدداً وافراً منها، لم يستعربوا هذا
لأن مظهره كان ينطق بالسلطة ولثراء: ملابسه فاخرة، قداحة سحائره
دهبية وساعته رولكس. كما أنه يسكن في «فلا» عريقة، لا يعرف إلا
لأقارب والأصدقاء المقربون، أنها إرث عائلي نزوحته سليله الشوات
إضافة إلى هذا، كان يلعب دور الوسيط في صفقات تجارية، لا

تفهم كاميليا أبعادها، لكنها تترك أمها مريحة لأن والدها - عقب إتمام كل صفقة منها - كان يتفق ببذخ ويقسم حفلات وولائم، تلعب فيها أمها دور المصيفة بارتقاف فائق، تعقب هذا المذخ فترات عجفاء، موسومة بقلة العاد، وبصاعد نوبات الغضب والشجار المتبادل. في تلك الأوقات، تنفد دولت على البيت من إيراد أوصها في سورهج، أو تباع قطعة من مجوهرات العائلة.

كانت لها طقوس خاصة مع المجوهرات لصالحا تاعتها كاميليا وهي تلعب بها، كقطعة تلهو بعرائسها، غافنة عن كل ما حولها تمسك فرطين مريين بحجرتي ياقوت، وتحكى لابنتها عن مسسات مهمة ارتدتها حدثها فيها، «كانت وصيفة لملكة تارسي» تقول ثم تداري خيستها لأن كاميليا لم تظهر الانهار المرحو يعلنو شأن جده أمها تعود للترتيب على سوار ماسي، أو قلاده مزينة بالمررد، أو عقد من اللؤلؤ الورددي، قبل أن تمسك سلسلة مبرومة من الذهب البديقي، يتوسطها حجر «أوبال» مهر، ثم يكسي وجهها بالأسى. حفظت كاميليا الحكاية من فرط تكرارها

«آخر هدية لماما من جدي» تقول دولت وتكمل انتهت في سره. «الأوبال شؤم. جميل، لكن شؤم»

بعد الهدية بأوم، تأملت أملاك العائلة، التي فقدت، مع الوقت، كثيرا من مجده السابق لظالما بمعجت كاميليا، من تمسك أمها سلسلة «الأوبال»، رغم حديثها الدائم عن كونه مثير شؤم، ورغم صطارها لبيع قطع أخرى ارتبطت بذكريات أسعد.

قبل بيع أي قطعة موروثه، كانت تلتقط لها عثرات الصور، بعضها للقطعة وحدها، والآخر لنفسها، وهي تتحلى بها. صور سوف تتحاشها لاحقا، لكن وجودها، يخفف من إحساسها بالدم، لتعريضها في حلي أمها وجلتها.

ثمة قلادة طمت حاصرة أكثر من غيرها في كلام دولت، كانت تعطي معظم البحر، فيها ما يشبه حبات حمص ذهبية، متصلة معاً بشبكة من لسلاسل الرفيعة لم تكن تتوقع مصمم معروف، ولا تتسم بأبهاه القطع لأخرى، بل كنت أقرب لـ «كودان» ريفي متدفر، رغم أباقتة، مع ما يسم بقية المجموعة من رقي متعالٍ، لكن ظهور سعاد حسني، في إحدى حلقات مسلسل «هو وهي»، بقلادة مشابهة، أورت دولت حماسة هائلة. «كان عندي أخو الكوليه ده». «نُصي يا ميليا، شو في سعاد لابسة إيه! فاكره؟».

لم تكن ميليا، في سنوات طفولتها تلك، تتذكر أيًا من الحللي المصاعة، ومع هذا اعتادت هز رأسها بررارة، تمسرها أمها، بأنها أسى على فقدان تحفة مماثلة.

وكل مرة تُعاد فيها الحلقة، تحمَلُ دولت في تفاصيل قلادة سعاد الذهبية بدهول، كأنها تكتشف للمرة الأولى، وتكرر كلماتها نفسها، وأحيانًا بالترتيب ذاته.

لم تعهم كاميليا قط سر تصميم أمها على التواصل مع صديقات، لم تعد بقادرة على محاربة سمط حياتهن، مهما استماتت في المحاولة ظاهريًا، لا مشكلة. تبدو دولت كأحد لا تراه متمية للطقة العليا، تسكن في «فيللا» فحمة بحي راقٍ، وتترنن بما تبقى من مجوهرات ثمينة، وترتدي ثياباً عالية الثمن، بفضل مهارة زوجها في كسب نقود لا تهتم سؤله عن مصدرها، تبدأ لمشكلة، حين لا تقدر على السهر مع صديقات الطغولوة، للسوق في باريس أو لندن، أو لتصنيف في إسبانيا أو إيطاليا أو اليونان.

مشكلة، تتعالى دولت عليها باستعراض مهارات أخرى ممثلة في قراءة فناجين لقهوة وأوراق التروت أو لعب البريدج

كانت حريصة دائماً على اصطحاب كاميليا معها أينما ذهبت. كان صوتها يرتفع وهي تادبها بـ «ميلييا» في الأوساط التي تتحرك فيها، وتبالغ في تدليلها إذا أحسب بوجود أي جمهور محتمل «وهو وسطك الطبيعي» لئلا تكثري، لأرغم تتجوزي منه كل معارفك إنك منهم والأرضاء». يقول دولت، فلا تجرؤ المدعوة «ميلييا» على الاعراض بأنها لا تزال صغيرة، أو أنها لا تنتمي لهذه الطبقة ولا لهؤلاء المتكلمين وامتكتت

تلاحظ ملاحظة أمها في التردد للجمع، كأنها مدينة لهم لإبقائهم إياهم بينهم، هي وابنتها البديلة الشاردة دائماً، والمحلفة في ملكوت وحدها. لكن مع فريدة، كانت دولت أكثر تلقائية وارتياحاً، وأقرب لشخصيتها كما تعرفها كاميليا، لا مداهمة ولا اصططاع. فرق العمر بينهما لا يقل عن عشر سنوات، ومن الصعب تخمين ماذا يجمع هذه الجملة المدللة بامرأة تكبرها، ولا يبدو أن رابطاً ما يربطها بها

لطالما دكرت فريدة كاميليا بالكريسال، فامرأة جميلة ولا بد من أنها فخمة بما أن دولت مغرمة بها؛ حملة ونحمة ككريستل تشيكي لم يتفتت بعد.

كانت فريدة متروحة حديثاً، حين توثقت علاقتها بدولت، وأصبح بيتها قبله مأوفاً للمرأة الأكبر واستهت. يب فريدة، حيث احتفلات والحيوية والصخب.

تصبت دولت لها مشعب، وسهمكان في حديث يستغرقهم، فتشعر كاميليا أنها فائضة عن الحاجة. تحكي فريدة أن السعال لم تأت أمس، وصطرت هي لدخول المطبخ، وهناك رأت ثورص، حاولت قتله بامبيد الحشري، فأخطأت ورشت المبيد على ملامحه.

«أكيد دي علامة يا دولت!»

نهر دولت رأسها موافقة، فتواصل فريدة أنها أجادت قراءة العلامة،

فترك البرص حيناً، واتصلت بزوجه كي يحضر لها كتاباً معه من إنجلترا، عن الأبرص وما تمثله من رموز في الثقافات المختلفة، كي تشهم مغزى لعلامة المرسلة لها من روح العالم، وتتصرف على أساسها.

تشعر كاميليا أن أمها خانتها بطريقة ما، لأنها لا تطر لها بتو طو، كما تفعل حين تسخر خدسة من صديقات أحرىات، على العكس تخصص فريدة بكل الاهتمام الممكن، وهي ترتب أوراق انتاروت كي يقرأها لها.

تنحصر فريدة في نشاطات أهلية عديدة، يتمحور معظمها حول الحفاظ على الأشجار والمساحات الخضراء في القاهرة، وتحدث بحماسة عن أشجار معمرة بجمعت جمعيتها في حمايتها من القطع تنق كاميليا من أن أمها لا تهتمها الأشجار للمعمرة، ومع هذا تراها تصب كأن لا شيء يورق حيثها سوى انحسار الأحصر من المدينة.

هتسام دولت بحديثها الخاصة سببه فقط فناعته أن الحداثتي المشددة من ضرورات طبقها، كانت تهتم بزهور ونباتات بعينها، وتعادي نباتات أخرى تراها أقل قيمة، ولا تصحح للتباهي بها أمام لروار

وكاميليا في ضيافة آدم ورور، طارده مشهد واحد من طفولتها، كانت فيه في التاسعة تقريباً، تنحني على إصيص مزروع فيه ستة فول أرهت نواها، يقيمصر من القطيعة الكريمي مرسوم عليه دبة وردية -- لا يكدرى، وينطال جسر أزرق، وشعر محكم الترتيب في ضميرة تصل لمؤخرنها، كانت تحمق في الزهرة الرقيقة كأنها من خلقتها

تتذكر كاميليا ذلك اليوم العييد كانت قد ادعت المرض لتتعب عن المدرسة، وحين وافقت دوست على ضرورة ركون سنها لراحة، قصت الأنة في السرير ساعتين فقط، قبل أن تعلن أنها تحسنت، وترعب في الحلو في الشمس لبعض الوقت. بنظرة متشككة لم تعترض لأم، وهكذا صيبت كاميليا بقية اليوم في الحديقة، ممددة على ظهرها فوق

العشب ويدها تغطي عينيها ويجوارها إصيص الفول. وحين قمت في
النهاية، وصعت الأصيص أمامها تأمل رمرت بلونيهما الأصفر والأسود
لا تعرف لماذا لاحصها، وهي في سائل، صورة رأسها المنحني
للتدقيق في زهرة الفول!

حينما سألتها روز هل يزرع الناس «من حيث أتيت» الورد، فكرت
أن تحكي لها عن ذراعتها للفول والبطاطا والبصل، في أصص صغيرة،
اعتادت أن تختار لها أماكن منزوية في حديقة أمها، كي لا تشوه منظر
زهورها المعتنى بها.

لم تكن ترى في نباتاتها الثمرية تشويها وإلا لما زرعتها، لكنها من
حيرات سابعة، كانت تعرف أن أمها تعمل مع مزرعائها هي كحشائش
صارقة، تكره أن تراها بين شجرات الورد والقرنفل والجاردينيا،
وتعاصي عنها فقط، حين تُحاصر في أصص صغيرة مهمشة، بجوار
السور بحيث لا يراها الزوار.

ربما لو كانت فريدة تحب نبات الفول والبطاطا والبصل، لرأت فيها
دوت النباتات الأكثر حملاً ورقياً في العالم، لكن فريدة لم تذكر شيئاً
قط عن هذه النباتات. كانت مشغولة بالقرنفل، تتحدث بلا ملل عن أنه
الزهرة الأكثر غباً والأقل تقديراً.

«Carnation is under-rated! What a shame!»

تقول بالإنجليزية وهي تهز رأسها بأسف، كأن هذا سبب شفاء
البشرية، فتبدأ دولت وصلة مديح في القرنفل. تنثي فيها على حماله
ورائحته وفوائده الطبية العديدة، وتقاوم كاميليا رغبتها في الصراخ
المتواصل.

ليمون ومشهد من ماضٍ سحيق

لستحل الآن مصباحاً مهجوراً، من سادته تبين حديقة مرروعة بأعشب عطرية وحصروات متنوعة، وعلى رخمه ثلاث ليمونز متروكت للحفاف

الأمر ليس صعباً، العالم يغص بملايين المطامح، ومن ابوارد أن تنطق هذه لمواضع على أحدها، إن لم يكن على العديد منها

من ماضي سحيق مغمور بالصب، تزور كاميليا، بين وقت وآخر، هذه الليمونات المتروكت على رخمة مسية لا تعرف ماذا تفعل بها! ولا سب فتحامها لخيالها في أوقات غير متوقعة، فقط تعمرها رائحتها قبل أن تهتز وتخفت رويداً

حارس غامض يهمس لها، بأن هذا لمشهد المفلت لليمون مندور ليحذف، شيء مؤثر ولا يصح تجهله. شيء له علاقة بأبيها وحب لليمون: «الليمونادة» مشروبه المفضل، إذا استشيت الكحوليات، لا طعام يدخل معدته إلا غارقاً في عصارة الحامض القوي، شايه نصفه شاي ونصفه الآخر لليمون.

طوال سنواتها الأولى، أحبرت كاميليا على أن يكون ذلك اسداق «بلاد»، جزءاً أساسياً من نكهات صفولتها. لم تكرر شيئاً كما كرهته

فكرتها عن الحرية، تمثلت في حياة خالية من الليمون؛ من نكهته ورائحته

قبل رحيله بأيام، اشترى الأب كعادته ليموناً طرياً، ثم يتق منه حين رحل سوى ثلاث ليمونات، حفظها الأم بحرص، واحتفظت بها في درج تسريحتها اعتادت كاميليا - في ما بعد - رؤية أمها تداعب الثمرات الثلاث، وتعلق قبضتها عليه بحنو، قبل أن تشممها وهي مدحمة

لم يعرف أحد قط سر كراهية كاميليا للليمون، كما لم يعرف أحد - بخلاف أمها وأدم لاحقاً - بأمر الركلة المحكمه التي أطاحت بتواربها منذ كانت في الخامسة.

«شويس ليمون!». يتردد اسم المشروب في ذهن كاميليا كترنيمه موزونة، من حسر حفظها أنها نجحت في محو طعمه من ذاكرتها. هل نجحت فعلاً؟

اعتادت التظاهر بالاستمتاع بالمشروب المفروض عليها، ولو شئنا اندفة غلب الاعتراف بأنها استمعت به مرة أو ثنتين! لم يكن لهذا علاقة بمناقته، بل يزهو أبيها بأن ابته تشبهه.

مثلما عاشت طفولتها خائفة من نوبات غضبه، ومن ركلة محممة تشبه الركلة الأولى المخيمة على حياتها لا تزال، كنت ترهه أيضاً، في ساعات صفوه القليله، إذ لا يمكنها الجزم متى سينتهي انصفو وتهب عواصف العصب، عصب غير موجه نحوها دائماً بالضرورة، لكنه كان يزعجها في كل الأحوال.

«خاله الطيب راضي عنه!» تقول دولت، ونههم كاميل أن أباهما مراجه رائق في الأوقات المماثلة، يأخذها لتجلس بحواره، يسألها عن مدرستها ودرجاتها في الامتحانات ويقول بدولت: «شاطرة ري أبوها!» دور أن يوجه لها هي المديح.

يصطحبها معه لحلسته المعتادة في المقهى القريب، ويطلب لها «شويس ليمون»، فلا تجرؤ على طلب «ميرند» برتقال كما ترغب. بحريرة طفولتها، كنت تلاحظ أنه سعيد لأنها تشرب ما يشربه، فتحرص على طلبه بنفسها في لمرات التالية، وتصبت باهتمام للنقاش الصباح بينه وبين أصدقائه يسما يلعبون الطاولة أو الشطرنج. كبر الفائز غالبًا، واعتاد تقبل فوره كأمر مسلم به، لا يسدعي التباهي عني رفاهه، الذين اعتدوا انتلاع إحباطهم ما كان ينقصها أنهم، كانوا يتعاملون مع تفوقه عليهم في اللعبتين، كشيء قدرى لا قيل لهم بتعبيره

كم كانت فرحتها عظيمة، حين شتفى «شويس ليمون» من السوق، ولم يعد سوى ذكرى محبوبة في عقلها، غير أنه بحلول هذا الوقت، كن أبوها نفسه قد احتفى من حياتها، وصار بإمكانها أحيانًا إعلان عدايتها لكل ما له صلة بالليمون.

بعد سنوات طويلة، حين خرجت من المستشفى بفحوة تتسع في حروفها، عاد إليها طعام الحمام، لارمها كعقوبة لم يحج أي مذاق آخر في تغييرها أو التخفيف منها

لدا حين رأت - لاحقًا - شرائح الليمون، في دورق الماء الموضوع على الكومود، في انعرة المحصصة لها بيت آدم وزوجته في سياتل، أبصرت فيها وجه أبيها يتسم بشفت.

امكان الوحيد لخالي في ذاكرتها من سطوة أبيها وشذى الليمون كان بيت فريدة، أقرب صديقات دوت هناك لا هموم بادية، لا شيء سوى الضحك والرقص والثرثرات، أو هذا ما اعتقدته كاميليا

في حفل عيد ميلاد فريدة، حيث كل لتماصيل تنطق بالشراء وتدل عليه؛ وحيث لبست رشيقات بملايس أنيقة وشعر ناعم ووجوه سعيدة،

حلت كاميليا الطفلة بجوار أمها مسحورة بكم لشموع، المورعة لها
وهناك، وأحلامها وروائحها العطرية

شمعدانات من الفضة، الخرف، الكريستال، لبحر وخشب البورد،
احتضنت الشموع زكية الرائحة مصقبة على الحفل نمسة سحرية، خاصة
مع حرص فريدة، على خفض إضاءة الكهرباء، لأدنى درجة ممكنة بعد
تقطيع التورتة والتهامها، تكونت مجموعات صغيرة، تبادل الدردشة
والضحك، فيم رقص الشباب والشابات في الوسط على موسيقى
هادئة، وراحت صاحبة الحفل يستعرض سراً ماسياً أهداه زوجها لها.
أما كاميليا، فاستغنت فرصة إشعال الجميع عنها، وانزوت في ركن
بعيد، تتأمل ذويان شمعة يرائحة الياسمين.

التحمت عندها بالذهب المهتر، ففرقت في أحلام نقطة، انتهت
بانتهاها على صرخة فريية، وعلى سبر روح فريده وهو بصعد رأسها
إلى صدره بقوة فهمت من الهلع والأصوات المتصاعدة حولها، أنها
نعمت، وهي منكفئة قريباً من الشمعة، عشبكت انوار في شعرها الهائش،
وبولا أن منير انتبه إلى الأمر في بدايته، لا حترق شعرها، قل أن تستفيق
من غفوتها رغم انطفاء النور في بدايته، بمنعه الهواء عنها، لم تتركها
منير، وظل يربت على ظهرها مطمئناً. لم يصايقه أن ستره نلعت، ولم
ينهرها بسبب عملتها، كما كن أنوها سيفعل

تحول قلوب المدعوين انعاير، إلى نظرات شفقة وسخرية مكتومة،
نظرات لطالما لاحقت كاميليا في أي تجمع، ما أن يُشعل أحدهم عن
عمد أعنية «دبدوبة التخية»، فتتجه العيون بحرها «دبدوبة» القلب
الذي ألصقه بها الأب، فلم تتخلص منه حتى بعد أن كبرت ونقص ورنها
سبيلاً

بعد سنوات، وفي حفل عشاءه بالبيت نفسه، اخترت كاميليا قبلتها

الأولى كانت قد صارت شاة ملون عرفت لتوها طريق اللعب بالكلمات ومعها ولا تكثر حتى يسحر بها الآخرون كلما أعست أنها ستصير كاتبة معروفة.

خرجت إلى الشرفة المظلمة، لتدخس سيجارة حلوة بعيداً عن رقابة أمها، أغمضت عينيها منصتة لهدوء الحديقة محاولاً تجاهل الأصوات الآتية من الداخل. سمعت نفساً عميقاً من مسجارتها، وحسنت الدخان في صدرها لثواني. عازلة في عديمها الخاص، لم تلاحظ أنها لم تعد وحيدة في الظلام، إلا عندما أحست بأنفاس، نفوح منها رائحة الشامانيا، تقترب من وجهها.

قل أد تفكر في التحرك، أطلقت شفتان شهوانيتاد على شفتيها، ووجدت جسدها مصغوصاً إلى الحائط ويدها في أسر قصتين مسطرتين، سمطت سيجارتها على الأرض، يتم دهبها في الحال حولت كاميليا تحليص نفسها بلا طائل. الجسد لملتصق بها كاد قوياً وغير مستعد للترجع، خلال لحظات وقعت هي أسر لذة صعقتها. فتحت شفتيها ليدفع لسانه مقتحماً فمها، ولماً اطمأن نتجوبها ترك يديها، وسرح كفه فوق ثدييه عبر القميص الخفيف لغسيتها، بينما انشغل الكف الآخر بجداعبة ظهرها

كما اقترب منها بلا مقدمات، استعد عنها فجأة لاهناً حين تسدلت للداحل، بعد دقائق، فتشت عيابه عنه، واثقة من أنها ستعرف عليه، بطريقة ما. كان مير يتحدث إلى آخرين بحماسة، بينما يلعب ذراعه حول خصر روحته ورأسها مستكين إلى كتفه، لثواني عازلة تعلقت عيده بعيني كاميليا، قل أن يواصل حديثه، صمماً روحته إليه أكثر

حين نفص لحصل، صمم على توصيل كاميليا وأمها إلى بيتهم، عندما عرف أن لأم لم تأت سيارتها. هالك قبل لدعوة لتناول لفهوة بلا

تردد منذ التقت عناهما، وهو يصم، ووجه إليه، أدركت كاميليا هويته من قبلها في الشرفة المظلمة

ترايدت وتيرة الحفلات، وتكرر انسحاب كاميليا لظلام اشرفة، في انتظار معجبتها السري. توسعت القننة إلى قبلاات أكثر عمقا، واكتشافات لاهثة للجسديين الملتصقين. في عتمة شبه تامة أصبح يلملمس والرائحة والأفاس المتعاقبة حسية مضاعفة. عبر تلك اللحظات المسروقة، شعرت كاميليا بأنها تنغم من قسوة أبيها، ومن سخوية الآخرين من مدانتها، ومن كل مرة شعلت فيها فريده أغنية «دندوية النجاسة»، في إحدى حفلاتها، سواء عن عمد أم لا.

تعلمت كاميليا المحافظة على النواظر التلقائي بينهما، ولم تحرقه بنظرة عالمة موجهة إليه، وتجاهلت - قدر استطاعتها - عينيه الباحثين عنها، والملاحقين لها. كانت كأنما تحبزه بأن ما يحدث في الظلمة لن يتجاوزها، لكن كلما ارداد إنكارها به في العلن، زادت رغبته فيها، وهي تأكد حصوعها به، في دقائقهما المختصة

وهي معه، تعمص عييهما، وتحيل نفسها بظلة قدم روماسي، تحيده شخصاً آخر، وتسمى لو لم تكن تعرفه خارج ظلام الشرفة. حين كان يوجه لها كلاماً عادياً أمام آخرين، كانت تتصلب وترد باقضب، كأنه حان عهد غير منطوق بينهما. بالتظاهر بأن أحدهما لا يكثر بالآخر.

ثم بدأ ينتظرها في سيارته على ناصية لشارع حيث تسكن، غير مباشر باحتمالية أن تراه أمها أو أحد معارف زوجته. لن تسي غضبه حين رآها تنزل من سيارته صديق لها، لوحت نصديقها مودعة، ومشيت في الطريق إلى البيت، لتعاجباً بمن يمسك رسغها مائلاً بانفعال عن علاقتها بمن أوصلها. ركبت معه خوفاً من امت أنظار الجيران، فابتلع مسرعاً

لم نره منفعلاً لهذه الدرجة من قبل، ولم يفهم مسبب ثورته، حتى تلك

البحظه لم تكن تتعاس مع مداعباتهما سجدية، ولم تطن أنه يفعل. هو لديه روحته وربما أخربت. فلماذا يتوقع أن يكون الوحيد في حياتها؟ حال هذا السؤال بخاطرهما، فتز يدت استهاتتها برد فعله العنيف، بدا بها مسلاً من فيلم مصري قديم

اصطحبها إلى شقة في هليوبوليس لم تكن تعرف أنها ملكه؛ فهي لم تكن مممة إلا بأقل، ثقيل عه، فقط ما تردده أمها أمامها من وقت لآخر، وما لاحظته هي طول سنوات ترددها على لحفلات والمناسبات المحببة في بيته.

أحالت لطر في الشقة الفحمة شبه الخالية من الأثاث وتساءلت، في سرها، عن عدد من أحصرهن معه إلى هنا كم يقرأ أفكارها قال «اشتريتها من أسوعين».

أجلسها إلى كبة تتوسط الصالة وعاب في الداخل لدقائمه عاد بعد أن خضع مسرته وهو يحمل كأسين وراحته سيّد فتح الراحة وترك يديها تنفس قليلاً، ثم صب السائل القوي في الكأسين أعطاه واحدة وجلس على الأرض، بحوار قدميها، يهر الآخر ويقرب حافته من أمه ليشم النبيذ قبل أن يتذوقه ببطء.

لاحظت أنه لم يتخلص من عصه دعم محاولاته السيطرة على أعصابه.

«مين الشخص ده؟ وإيه علاقتك به؟»

«مش شغلتي».

لم يرد. انتقل إلى حوارها وصحبها إليه. التهم شفيتها كأنها يحرقها. عض شفيتها السفلى ولحق بسانه شحمة أديها، ثم بدأ يقبلها برقة. فوجئت به بتعد عنها فأمسكت وجهه بين يديها وقبّلتها هي

عاد إليها، يشغف أكثر، حملها إلى السرير بالداحل والتحقيق بها، كانت
كالمخطوفة في حلم.

احتضنها كما لو كان يرعب في أن تكون حرًا من جسده، أن لا
يكون لها وجود خارجه ويعيداً عنه أخذ يستشققها بعمق، ويتشمم كل
مليمتر من جسدها ويتدوفه بانعماس. بدأ شفقتها ووجهها ثم عنقها
وكتفها وتديها حيث توقف طويلاً تدثها مرتعشاً كانت حواسه المحس
متمركزة حول جسده الغائب في البدء. أتاها همسه في أذنها بصوت
منقل بالشهوة، بعيد تماماً عن صوته المألوف الرائق والسيطر. شعرت
كاميل بقوة قصوى كويها فادرة على التأثير فيه على هذا النحو، وضعف
لا محدود بحولت معه إلى كتنة أعصب عارية، لا تملك أدنى سيطرة
على نفسها أو مشاعرها، وعلى وشك الانفجار في أي لحظة

صرختها الأولى كُتبت بقبلة خائفة، ثم خفت الأم، وبقيت اللذة
المحذرة والمتصاعدة على نحو لم تحتبره من قبل. أظافرها تركت
حرساتها على ظهره وصدره، وأسندته خفت آثارها على مواضع متفرقة
من جسده، كمات خفيفة مستحضها كاميل على مدى أيام قبلة نالمة،
فتشتغل رعبتها وهي تسترجع تفاصيل عوامهما

لم تنته لدوقت وهما معاً، كانا خارج الرمن، فوق سحابة تحلق بهما
للأعلى. أحست كاميليا نفسها خفيفة محلقة بين دراعيه حين ضمها
- لاحقاً - إليه، وراح يثرثر بلا نهاية، ثم تره من قبل مقللاً على البوح
لهذه الدرجة، لظالما بدا لها كمن لا يطبق الكلام الحاد خاصة الشخص
مه. كن إما بورع تعليقات ساخرة لا يعرف منها من أمامه رأيه الحقيقي
هي أي شيء، أو يكتفي بمتابعة الآخرين وفي عينيه نظرة هارئة لم تكن
كاميليا تفرح إليها.

حكى لها عن شأنه في سرايا تملكها أمه: أرمله ثرية تروجت أكثر من

مرة عقب وفاة أبيه، ما محه ميراثاً للاستقلال بحياته وميراثه مبكر. تكلم أيضاً عن شركته وولعه بعمله، وعن أصدقائه المتيمين في معظمهم - إلى طيفته نفسها من كلامه استشفت كاميليا أنه يعيش في «حيثو» خاص به، تختلف قو بيته عما يحيط بها

توقعت أن يشكو من روحته أو يسوق حججاً نمطية يبرر بها حيائه لها، غير أنه تحدث في الكلام عنها باستثناء عبارة واحدة وصفها بها واقشعر لها جسد كاميليا: «فريدة غاية تم اكتشافها»!

أدركت أنها كي تظل مستحوذة على اهتمامه، عندها أن تكون عصبية على الاكتشاف، أن تظل لعزاً بصعب تفسيره، وإن لم تفهم تماماً كيف يمكنها تحقيق هذا الهدف، كما لم تكن متأكدة من رعبتها في تحقيقه أصلاً.

في البداية لم تدرك، من أحبت منير أم لا! كل ما هي متأكدة منه أنها أحبت نمسة لخطورة وأسريره في علاقتهما. العيش على لحافة دون حسب الخطوة القادمة أو توقعها، استهواها. حيرتها قدرته على إخفاء شعفه بها أدم الأحرار، لو أنها لم تلمس هذا الوسع المقارب للهوس وهما بممردهما، لطست أنها لا يعني له أكثر من نروة عذرة

لم نجد مقابلاتهم مقتصرة على دقائق محنسة في لظلام، صاروا ينتقيان بانتظام يتطرق بسيارته في مكان بعيد عن الحي الذي يقطنه، يفود لأبعد مسافة ممكنة، قبل اختيار مكان يجلسان فيه بالساعات، يتحدثان في كل شيء وأي شيء.

أصبح الأمر محتلفاً، لم يعد متلفاً على نفسيها أو احتصاصها كما في السابق، شككت حتى أنه بنجب أي اتصال جسدي بها. بدا لها لعزاً مستعلقاً على فهمها مثل لها في البداية نروة مثيرة، مغامرة تتمردها على سيطرة أمها وسخرية لأحرار، وعدم نصح الشباب المقاربين لها في السن.

أن تكون مرغوبة ومشتهاة من رجل مثله أمر لم نحلم به، أمر جعلها
تصور لنفسها يعيين مختلفتين. اعتادت الوقوف أمام المرأة مطوّلاً للأمر
وجهاً وجسدها في محاولة لتجبل كيف يرها منير وب الذي أعجبه
فيها!

لاحظت ألقاً جديداً في عسيها، وبضارة أضفت على بشرتها مريداً
من الشد في المرأة واجهتها هيئة امرأة عاشقة. في ما بعد أدركت أن
انعكاسها في المرأة أسرها بمكون نفسها فل أن سته إليه بكثير

توقعه عن اصطحابها إلى شقة هليوبوليس، أحافها من أن يكون قد
دم على تورطه معها، لكنه لم يظفر له أكثر هي المحبة للإلغار
واسمعيد، لم يستهوه أدأ الوضوح ولا إمامشة رأت في منير أحجية
تحتها وشيرة معقدة تثير خيالها. قالت في سرها إن كانت هذه لعبة،
فاللعبة يمكن أن يلعبها اثنان، ولو كان هناك فائز واحد فيجب أن يكون
هي.

لكن سير لم يكن في مراح للعب، ما لم تتوقعه هو أنه وقع في حبها -
كما أخبرها فيما بعد - ولم يكن واثقاً مما يريد هي من علاقتها به، ألقفه
أن تراه محرد ممر لحرات جديدة أو مغامرة تتماحر بها، كما لم يعرف
كيف سينصرف مع زوجته وولديه

هي أيضاً فكرت في مريدة في تلك الفترة، وترايد تفكيرها فيها كلما
تعمقت عواصفها بحوه صديقة أمها الحميلة والمتعالية لم تعد تثير
صبيها أو بقمته، لم تعر منها كما يُفترض بها أن تفعل؛ بل بدأت تنظر
نحوها بعطف لم تنهمه، رأت فيها بعضاً من منير، من ماضيه وحاضره.

تحاشت الردد على بيته مع أمها؛ لم تحد في نفسها القدرة على
رؤيته مع أسرته الصغيرة، يتعامل معها أمهم كصيفة طارئة على عالمهم
الحميم وهو لم يسألها عن سبب انقطاعها عن ريرتهم.

فجأها برغته في الطلاق أخبرها بضرورة تحب الخروج معاً حتى
تهذا عاصمة طلاقه سينقل ملكية ابنت لزوجته، وستقل مؤقتاً إلى شقة
هليوبوليس.

«مهيش داعي اسمك يرتبط بالمشكل دي!».

قال ولم تغلق.

حين أحسرت أمها بعد أكثر من عام برغبة منير في الزواج منها، جئت
الأم بد عضبها متعاقبه بالنسبة لكاميليا. حذرتها من فرق العمر بينهما،
من أنه سيعود لطليعه وولسيه ما إن يمل منها فكرت كاميليا لحظتها أن
أمها لو خُيرت سه، وبين فريدة ستختار الأخيرة، وأن اعتر صها اشديد
على رواجها هي من سير سسه الخوف من فقدان صديقها الحميمة

قاطعتها أمها بالفعل لم تحضر الرفاف، وفضت قضاء اليوم بكامنه
مع صليقة سير واسيه، معلنة برؤها مما أقدمت عليه وحيدتها

لطانما خصت كاميليا أن علاقة المراتين، أقرب لعلاقة أم باستها، منها
لعلاقة صديقة بصديقتها. كأن دولت حلمت بانه حميمة واجتماعية مثل
فريدة، وحظيت بكاميليا «طيفة الفهم والحركة»، كما كان يصفها أبوه
في أوقات عصبه

بعد وفاة دولت، خطر بكاميليا، أن ما أحبته أمه، بخصوص فريدة
وحياتها أكثر من غيره، قد يكون زواجها الساحح من منير، وبيتها المصل
- طهرنا على الأقن - بالحب، والصخب دائمة بحفلات وولائم بجميع
الأصدقاء.

زواج حمت دولت بمثله لنفسها، وكما أن تكون انتها مس من
أسباب انتهائه.

حيث بدأ كل شيء

من مقعد خشبي - في باحة متحف على صفة اعلناى، بدأ كل شيء.
كي نفهم حقيقة ما نحن بصدده، علينا تذكر أن المقعد الخشبي
لطويل كان مطليا بالأخضر الداكن، إلى يمينه المسحف، وإلى يساره
مقهى كولومبادا ومحل بيع تذكارات كافكا وفي مواجهة مقهى «تسهلنا».
رما لو كان المقعد مطليا بالبني أو الأزرق أو الأحمر لاحتلف الأمر،
لكن ثمة أشياء لا مقدرة لنا على تغييرها، ولا حكمة في المحاولة.

الأخضر بدرجاته هو اللون المفصل لكاملها. لون لحية الجديدة
وجسد فوروريس وعيني حورس في الميثولوجيا المرعوية ولحشمت
حجر كاميليا الأثير لا مثيل لأحضراره لو قُتر لها أن تعد عينيه عن
المسافة لبائسة بير قدميها المشاعلتي قليلا. لأدركت أن اللون الداكن
للمقعد الخشبي، علامة وغمرة عين من القدر

حين حكمت لأدم في لقائهما الأول ذلك عن حلم متكرر ترى فيه أنها
تكسب قصة - وتشاعدها وتشترك في أحداثها - في الوقت نفسه، اهتم بما
ذكرته عن كاسة روسية وعازف بيانو يحدق في أصابعه، ولم يلتفت إلى
كلامها عن عموز يزرع حشر تشارلز، حيثة وفهايا، بلا انقطاع. هي نفسها
حين بدأت تحمر تفاصيل الحلم، وتسني عبه، وتصيف إليه هي محباتها،

تأسست لعجوز لفترة. انشغلت بالتفكير في من أطلقت عليهم في سرها اسمي «أولجا» و«سندور»، وراح عن بلها ثالثهما لم يسح لها الحلم بعلاقة هذا المشاء بهما، ولا بعلاقة أحدهما بالآخر، لكن في حالتهم راحت كاميليا تغزل على مهل حيوطاً تنص بينهما، أما هو فاستعصى عليها، وتحدثى محيلتها مكتفياً بسيره الطقوسي غير لهادف لشيء.

ثم برغ شعاع ضوء في عقل كاميليا، من مشهد قديم ذات صباح بارد برداً محذراً، حيث بحار الماء يتصعد من الأفواه ما أن تفتح - ويمترح بالصباب الحفيف.

في المشهد عمة ممتدة، وتغريد طيور غير مرئية، وفي الحوار كوح حشبي حرج مه رحل و امرأة منغمسان في حوار حميم دراعه تحتص حصرها بتمك، ورأسه يمين إلى رأسها همساً في أذنها بينما يدها على صدره كأنما تخشى أن يطير ويتركها وحدها

من حثتهما ابعث صوت غاضب، ويد انتزعتها بعيداً، وضربت رفيفه حتى عاد عن الوعي. كان في غمامة من الهستير والحب وهي تُقاد إلى السيارة المركونة في مكان محفي حلف الكوخ، لم تُسح لها فرصة للاطمئنان على رفيقها فقد الوعي، ولا لتوديعه.

في الطريق إلى البيت كان الضممت راسحاً نسحب العصب رويداً، مفسحاً المجال للاحتقار وعدم التصديق. ربما كان الكبرياء هو ما دفع الرجل المنسحق في أفكاره، بينما يقود سيارته بسرعة، لاستبعاد فكرة أب تكون زوجته لشاة على علاقة بآخر، رغم أن أطراف المحيط تحمعت عنده لتؤكد هذا.

الرجوع الغاصب، ولنختار به اسم فلاديمير، وصل إلى انداتشا^(١)

(١) بيت صيفي أو كوخ حشبي في عدة.

- القابع على أطراف غدة خيمكي - قبل ساعات. ركن سيارته على مقربة، وجلس فيها ينتظر. لم يرغب أو للدقة لم يقدر على الخروج منها والتوجه نحو الماتشا. فصل الانتظار بصبر جديد عليه منمياً أن يكون معلوماته خاطئة.

وصله صوت لباب وهو يُفتح ثم يُغلق، فخرج من لسيارة معها صوب زوجته ورفيقها بدوا له عانس عن انعالم من حوبهما، لم يرها حية ومألقة هكها من قبل، رغم هندوثي لظاهري وهمس حميم لم تقدر أذناه على التقاط فحواه، لاحظ حماسها وتدفعها لم يدر نفسه إلا وهو ينزعها بعيداً عن مسدور قبل أن يوجه له لكلمات عيمة متباعدة سم يرد عليه عزيمة بعف ممثال، بل لم يحاول الرد أصلاً

توكة فلاديمير ملقى عانساً عن لوعبي، وجر أولحا إلى لسيارة بعد مشادة حامية معها. استجاب لقبضته في الهانة دون مقدومة، فقط طلت عيها معلقتين بالقة حيث يرقد رفيقها حتى أوغلت السيارة في الانبعاد.

يستعبده وهو مكوم كيما اتفق وأتفه يزف، فتدحل حيال اعمار بداحله في المشهد يحرقه ويتلاعب بمكوناته. يضيف له ثلج تساقط بزاراة من السماء وحبلاً يكسو الأرض، فسدو الحسد الممدد كانه يعفو على ملاءة بيضاء هائلة. والثلوج المتساقطة تغطيه بالتدرج حتى لا يبين منه مستثمر واحد. يحكي وتضع يد محبوبة وردة حمراء فوق كومة الثلج التي صار إليها.

هذ هو المظنر الأحب إلى قلب فلاديمير ثلج، ثلج في كل مكان لأرض محتبنة تحت طبقات وطبقات من الحديد، والأشجار منشحة بالياص. لم يصبر في حياته شيئاً أجمل من مطر الثلوج المتساقطة من اسماء، حبيات بيضاء بالعة الرهاقة والرقه، نطل يرافها وهي تعطي كل

شيء، فيشعر بأسى لا يفهم سببه ولا معرّه يوشح تساقط الثلوج وحدثه حتى لو كان وسط لمئات، ومع هذا أو ربما بسببه يعثره الشيء، الأحب إلى قلبه.

حيث بدأ كانت العرلة هي القانون، فاعواصف الثلجية المتكررة كانت تفرض على قريتهم عرلة إجارية عن العالم تغلق انطرق الموصلة إليها، وتراكم طبقات الحليد في الخارج، فيظل يراقبها من خلف زجاج النوافذ.

لو كان هناك شيء وحيد يكرهه في هذه العواصف، فهو أنها تحرمه من اسشط لمفصل بديه السير، التسكع بلا توقف أو بهية خطوة في إثر حصوة، ومسافة تتبعها أخرى. يستعيد حنانه أو تتناساها مع المسير، يقطع الطرقات كحيوان يلتهم آخر راده، فيحظر له أنه سيتشحر أو يستحيل عازاً متطائراً في الفضاء إن توقف. لا يتذكر متى سكنه هذا الهوس، م يعرفه أنه اكتشف فيه خلاصه، وتعرف عبره على نفسه، أو فقدناها وتمسك سلاً منها بمكرة هشة عنها، هشة ومتلاشية كدرة نائفة في عاصفة

بعد مسوت طويبة من اكتشافه الأول لندة السير، لا يزال متمسكاً بها محلصاً بها. يتسكع عبره رعة في التعرف على المدن والطرقات، المشي عندهم حجة للفرحة على ما يقابلهم، يأخذون وقتهم في تأمل م حولهم حركة انشراح، م يرتديه المارة، تفاصيل المعمار

أما هو، فسيره خالٍ من الغرض، يستعرقه السير فيعرق فيه يسي ما صبه، يتوه عن حاضره، يسهو عن هويته ويتوحد بخطوته. يصبر ساقين لا تكفان عن الحركة سافان عملاقان طموحهما وطء كل ستيتمتر متح على هد الكوكب، حلم مستحيل؟ لا بأس. في النهاية، لا يمكن لساقيه أن يسكنهما حرم مماثل، هما مثله، لا هدف لهما سوى السير المتواصل، سواء في مساحات شاسعة أو في المكان نفسه بلا توقف الذاهل عن ما حوله لن يهتم بتغير المناظر المرافقة لحصوله.

سق له في العاصي، أن ظل يقطع الشارع ذاته مرات ومرات يومياً لشهر كامل، غير عابئ بمتاعيه المدهشين والمآخين عن مطلق ما خلف ما يقوم به أو يمرر له.

كيف يفهمهم أن الممرات بلا معنى؟ ما من طريقة لإقناعهم بأنه نفسه لا يمكنه القصص على مرر واضح خلف معظم قراراته واختياراته المصيرية لعلها كان فاشلاً في شرح ذاته وأفعاله أو الدفاع عنها

كان يحب في أولنا أنه في حصرتها في غير حاجة إلى التبرير والأبصار لا تستهويها متاهات التفاصيل الصغيرة وتعقيداتها. تبيل الآخرين كما هم. هكذا كان يصفها قبل أن يتساءل لاحقاً هل هي كذلك بالفعل أم أن الآخرين خارج حسادنها، غير موجودين بالنسبة لها؟

أي ما كان الأمر، باسم ذلك، معه مساحة شخصية واسعة. لم يكن مضطراً مثلاً لأن يوضح لها أسباب رحلة القطار الطويلة بامتداد خط «ترانس سيريان». في الحقيقة لم تكن هناك أسباب ليستعرضها، مجرد نزوة خطرت له فقرر تنفيذها على الفور

نلك الرحلة، كانت معادله الوحيد لتفسير انطوقوسي غير الهدف لشيء. حلالها، حاول سيان كل ما يحصه، شعر بأنه شخص آخر مُنبت الصلة بحياته الماضية، عابر مسيل في قطار سريع، يطر من البادية فتواجهه ثلوج معتده، وشجر يكاد يتجمد، يغادر محطة ويصل إلى أخرى، فتشابه عليه المحطات خاصة في الليل المصباح مهزلة الإضاءة والانتظار وقد تحسد ولم يعد معنى مجرداً

في عربة الطعام، المتأرجحة قليلاً، كانت تهتز بإضاءة شمعة على الطاولة أمامه، بينما يدون هو أفكاراً وشذرات، يتحدث بأنه سيحتاج إليها حين يقرر كتابة تفاصيل رحلته لاحقاً متأملاً المحيط لهددي وهو في جزيرة سحاليين، بعدها سنوفاً، ستخطر في باله الشمعة بإضاءتها

المتأرجحة، سوف يشعر بدشء حافت أمدته به، ويرى عيني ذاكرته
طلاتها المتراقصة، ولن يفهم أبداً لماذا دائماً للظلال حضور أكبر من
أصولها في مخيلته، وللصدى الأفضلية على لصوت

حتى ذكرياته، لا ينحفر منها بداخله، لا أشده خفوتاً وهشاشة.
من طفولته تحصره فقط الروائح والانصبغات ولأحاسيس، وتغيب
الحوادث الكبرى لا يساها بالضرورة، فما زال يفخر بذاكرة متقدة،
فقط لا تلح عليه، ولا يستعيد ما مرّ كعادته مع التعاصير البهامشية

يجتر بتلدد لا يفتر لحظة جلوسه مقرصاً في بستان تفاح في بدايات
مراهقته كن يسير كعادته في الطريق الواصل بين قريتهم وانقرى
المحاورة، حين بدأ المصير في الهطول، رأى بستان التفاح قد خد، كانت
الأشجار مرهرة، أزهارها الرقيقة مريشة تحت المطر والبرد، ورائحة
العشب كثيفة، للعشب رائحة مختلفة حين تعشه الأمطار وتوقظه، وهو
جلس مستمتع بلحظة صفو نادرة ومبهمة.

كما عاودته تلك الذكري العبيدة، يدرك أن طريقة توزيع ضوء النهار
المعش في عياب الشمس وحصرة اليوم اذاك، وأثره على انستان
وما يحيط به هو ما يحلّها بدخله. تلح عليه رائحة العشب الممروج
بمطر، لكن الضوء الكبي المسكب سخن، والأقرب للظلال مه
لصوء، وأثره على أخضر الأشجار وأبيض الزهور والأفق البعيد، هو ما
استفز مخيلة لفنان بداخله، حتى قبل أن يتسه إلى أن صورة الفن كامة فيه
في القطار العابر لسبيري، رسم إسكتشات لا تحصى للمحطات
المتشابهة والمختلفة في آن، كان يبحث عن لتعدد بين لمشابهات،
ويحلم بالامساك بتلك اللحظة السحرية حيث يمتزج انصوء بالطل
كأنهما شيء واحد.

حلال تلك الرحلة، شعر أن لا حذور تشده إلى أرض ولا حيوط

تربطه بغيره. عامر سلس في قطار دلا وجهة بهائية. بعد هذه الرحلة بأقل من سنتين كن المشهد أمام الداتشات ضحى بارد مشهد صار يؤرخ به لما قبله وما بعده، ونو كن الخيار له، لعص اختيار رحلة «ترنس سبريان» باعتبارها الحدث المركزي في حياته، لكن رعمًا عه تعرض المشاحرة قرب الغاية نفسها وبحوم طيف الرجل - الملقى على الأرض وقد غاب عن الوعي - في مخيلته

حكمت له أولجا لاحقًا تعاضل علاقتها بساندور متلكنة تحرح الكلمات من فمها بالكاد ويصوت مسح متردد. كن يستحها عى مواصلة الحكى بلا توقف، يسألها عن أدق التفاصيل، يطلب منها مده مشاهد مرسومة بدقة، تلذد سخطها وضيقها ويدهش من طاعتها، وتنازلها عن عيادها وروح التحدي الملازمين لها. هل كت مثله تحد متعة مدته وعامضة هي إخراج سرها إلى العلن؟ هل كن الحكى وسيلتها لتوديع هذه العلاقة وتحريز نفسها منها؟ أم تميمتها لتخبيدها بداخلها وبعميدها نماء القول والاعتراف؟

لاحظ أنها حرصت على عدم التورط في الشير. قالت إنها التقت ساندور للمرة الأولى في حديقة «حوركى» مصادفه طشتها عبارة عن تتكرر، تدلا فيها كلمات قليلة، داعب الصغير وأعطاه حلوى يرومية ذات لكة ثقيلة، ذكر شيئًا عن غرته في موسكو وعن الشتاء صيفها ابدائم، قارن بين نهرها وبين الدانوب الذي يشق مديته الأم، عبارات لا تشكرها أو يجد لهاها كانت مشعولة بمقاومة انحذابها إلى بعه صوته انحسي المشروخ قليلًا وبالحث عن لحظة مناسبة بين جمه لمنالحة تستدذد للانصراف مع طفلها. لم تنبه إلى أنه تبعها إلى البيت، وحرص على تكرار «مصادفة» لقائهما الأول.

أخبرها فلاديمير بعد شهرين بخبر معدرة ساندور موسكو، كن مستمتعًا بمراقبة تعبيراتها واختلاجات وجهها بينما تصت لكلماته،

ناورت وتظاهرت بعدم الاهتمام، لكنه كان مأكداً من أن رحيل الأخير المفاجئ ألمها، وأشعرها بأنها معمرة عائرة في حياته كانت قد اختارت سملء إرادتها الاستمرار مع روحها وإنها، ومنح رواجها فرصة، وأدهشها أن «فولوديا»^(١) ارتاح لقرارها، وتغاضى عن علاقتها العرامية بغيره، غير أنه حين بدأ بحثها على سرد دقائق هذه العلاقة مراراً وتكراراً، حافت أن تكون تدك هي طريقته في الانتقام منها ومع هذا لم تعترض على السوح بحفايا طب، قبلاً، أنها ستظل سراً للأبد وهي تسرد الحكاية بصوتها المتردد الحافت كانت ترى ما جرى في صوء جديد، تفهمه وتصعه في سياقه الأوسع حُبْل بها أن الإعادة والتكرار سيدلانها على سبب ختماء ساندور انتام وعدم اتصاله بها ولو للاطمئنان عليها.

لم يحبرها فلاديمير قط أن ساندور أرسل لها، قبل أن يعادر موسكو، رسائل عديدة كان مصيرها التحول إلى تراب، وأنه حاول ريارتها، فهدده فلاديمير، وأكد له أن زوجته حررت قطع صلتها به نهائياً كت أصابع سدور لا تزل معطاة بالضمادات وجروح وجهه حية وظاهرة حين التقى الرجلان.

لا يعرف فلاديمير لماذا لم يهجرها حين اكتشف علاقتها لسرية! لم يكن مشعولاً بالحفاظ على أسرة متماسكة بتربية بهما، بالنكاد كان يتذكر وجود يسان وقتها. ربما راقته لدراما «تي أصفت إثارة» على علاقتها الحالية من الأحداث لكبرى، أو تعامل مع المسألة كمعركة عليه الانتصار فيها تحت أي ظرف.

أعرق أولج نفسه في كتابتها وحيوات أبطالها وبطلاتها، أما هو فواصل سيره. لطقوسي باعناده العراء لكل ما يقابله من حيات وعثرات، وشغل نفسه بمشاريع فسة متتالية، معرض فوتوغرافيا، إسكتشات رسمها

(١) صيغة التذكيل الرومية لاسم فلاديمير.

لمنظر طسعة وحيالات تراوغة، ومسودات كتاب بدأه مفصل سرد فيه
ذكرى انقبص على الضوء متحذاً بالطل، داب يوم ماطر بعيد، هي بستان
تفاح على الطريق الواصل بين قريتين
في مفتتح كتابه هذا كتب فلاديمير:

«النر أم الوهم والندخان. أم ملتاعة تتعدى على ذاتها وتطلق انسها
حرًا هي القصاء، هشا على وشك التلاشي. وأنا أحلم بحياه من وهم
ودخان يعكسني على مرآة معيشة، فتتلاشي الحدود وتحتبط وفي قلب
هذا سأظل دومًا صقرًا يحلم بأن يصير عزالًا، طائرًا لا يعرف تحديدًا ما
العزال، لكن فكرة العزال تتراءى له كشيء تعجز معارفه عن لإحاطة به
أو انقبص عليه، ومع هذا تنوق نفسه إليه، وتتسظى روعة رعة في أن
تصير إياه»

رجل وامرأة وثالثهما بئر

لَسَّسَ، مؤقتًا، كافكا ومتحفه والملثاف وبراع، سترك أولحا شرده أمام
حسوبيها، وساندور محدقًا في أصابعه، ورور محبوسة في ربانة من
الدون لأرجواني، وفلاديمير سائرًا بلا هدف، ولستحضر رجلًا وامرأة
جالسين على مقعد خشبي وأمامهم بئر المرأة ساهمة، وشعرها يتصير
مستسلمًا لمد عبت انسييم، والرجل يربو باتجاه البشر، غير أنه يبدو كمن
لا يرى، كأن عييه مقلوبتان وتظنراب نحو الداخل.

الرجل والمرأة حنفهما ستان ريتون، وفي الحلفية يلوح تل فوقه بيت
قديم يبدو للناظر من بعيد كقلعة معلقة بين السحب، دخل البيت رجل
يعيد قراءة حياته كنها في مرحلة أفوله، ويحتهد - بلا طائل للتمييز
الحقائق والصلالات، لكن تلك قصة أخرى.

بعد البئر، تمتد صحراء بلا نهاية، لا أهمية للصحراء هت سوى أن تون
الرمال مناسب للحياة المحيطة على الحالسين على المقعد

لكن لماذا بئر تحديدًا؟ وما دلالتها؟

بطالما أسرت الآن حيال آدم. لم يرَ في حياته بئرًا، ولا يعتقد أنه
سيمعل يومًا، ومع هذا توقَّس له احتيبر الشيء لأكثر إغواء وإثارة لأفكاره

لاحتارها بلا تردد. بشر جافة أو مملأى بالماء، لا يهم لكل جاذبيتها في
نظره الآبار والمناجم رحم الأرض ومستودع أسرارها وخصوتها.

يفكر في كاميليا، فخطر له أن ثمة بثراً كانت حاضرة في لقائه
الأول به، بثراً عميقة العور ألقى كل مهما فيها بحموله من الأسرار
والهواجس، بل ربما مثل كل منهما بثراً للآخر. كنت شره وكان شرها.

غير أن لتخفف من عبء الماضي، لم يكن تخففاً بأي حال، على
العكس من ذلك، انتعشت أشباح ماضيه حية من محابتها ما أن باح بها.
بعد أن كن قد قمع نفسه طويلاً بزوالها وتجاوره لها، هتت حية عاصفة
وحيدة.

لا يعني هذا أنه نادماً ما يساوره هذا الشعور، كما أن إحياء
المحارف وقود للكتابة، وهو دحرق لأغصابه وأترابه النفسي، لكنه فعال
ومؤكد لإشغال حياله.

أحج هذا الوقود محيله، ورسم فيها مدينة تُسوَّى بالأرض، معالمها
تتلاشى، ومعظم سكانها قصوا نحبهم إما تحت الأنفص أو مختبئس أو
محترقين. واحد من أهلها وحد نفسه مسكوناً بسك يتجور في غابة
بلوط رطبة ومظلمة تقع على أطراف مدينة لا تشبه تلك المدمرة

رأى آدم في تحدد محاربه وانعاث أشباح ماضيه ثماً بخساً، هو على
أسم استعداد لدفعه مهر القصة أخذت تبني بداخله على مهل لكن شات.

فكر في البداية، أن يجعل من مدينة خيالات بصله، ساحة داكّة من
براغ، حيث ست تدور القصة في عقله، أن يحولها إلى «براغ» أخرى لا
يجمعها بالمدينة الواقعية سوى الاسم، لكنه سرعان ما غير رأيه، وارتاح
لفكره ألا يكون لمدينة قصته أصل واقعي واضح.

قال إنه، ما أن يشهي من كتابتها، حتى يهديها إلى كاميليا، بشره الحاصة

لتي ألقى فيها بأسراره ومحاوله القديمة، فأهدته - دون قصد منها - طرف الخيط إلى مدينته الحلم.

أسلك بطرف الحيط منها وأبقى نفسه في عياب الشر، حيث الظلمة والبرودة وانغرق، لكن أيضاً حيث الوعد امروع بالوصول إلى مكان لا يشبهه أي مكان آخر. وعد تأكد آدم المرة تلو الأخرى من سرايته، إلا أن حماقة محبة تدفعه لملاحقته وقطع مسافات هائلة في الطريق المنوهم إليه.

مبدطمولته عتدأ بفعل كل شيء وحده، لطالما أحججه طلب العون من الآخرين. كان يستحم وحده كعادته، ثم فوجئت به أمه يخرج من حمام عارياً مفروغاً. قال إنه وجد شيئاً عربياً في حوض الاستحمام، فدخلت معه متحيرة، بطرت بتدقيق فلم يبصر شيئاً غير عألوف بعد دقائق من لجدن مع صغيرها لاحظت أنه يشير إلى صله المنعكس على حوض الاستحمام الأبيض.

ضحككت الأم باستغراق فغصص، الالاس غصص لم تخففه متابعة قبضة الأم المتحركة والمنعكس ظلها على يبحر الحوص على هيئة كائن غامص هدفه إضحاك الصعير لا يخافه. أوضححت له:

«هذا ظلك، وهذا ظل قبضتي، حرك يدك وستُماجاً بظلمها يقدك ويلعب معك».

«لا أريده، تحلصني منه».

«لا يمكنني حتى لو أردت، طلك بصاحبت لأنه يحبك».

«لا أحبه ولا أريده أن يتعني».

صرخ آدم بالجملة الأخيرة، فاحتارت الأم كيف تقع طفلها العنيد

بأن ثمة أشياء خارج مجال قنوتها، طمأنت نفسها، بأنه ما إن يكرر حتى
يتأقلم مع حقائق الحياة، لم تنته إلى أن آدم طل سنوات مسكوناً بطنه،
بل ربما لم يقلت من أسره قط.

كان يسير وعناء مشتت على ظل سبغه تارة ويلحق به أخرى، يكون
أصغر منه مرة وأكبر مرات. مداله كرفيق غير مرحب به، كتكوين رمادي
مبهم يراقبه ويطل عليه من عالم غامض.

قرأ كل ما وقع تحت يده عن الطل - التفسير العلمي له وكيف رآته
لميثولوجيات القديمة، ورميته في الثقافات المخملية.

من تفصيلة لظن الحائف من طله في حوص الاستحمام قبل عقود،
سعت في محبة آدم، فكرة أن يكتب يومًا عن مدينة للحوف، وتحيلها
أرضًا للظلال ومأوى لها، بل كطل المدينة وفكرتها عن نفسها، أي مدينة
وكل مدينة

لم يعرف لسبيل المباشر لتحقيق هذا الهدف، فقرر ترك الفكرة
تختبر في رأسه على أمل أن يحلوها الوقت وينسجها في عمله برغ
عنوان القصة لأوني «ناسك في عابة».

دونه في دفتر يومانه، وسارع بإرسال رسالة إلكترونية إلى كميليا
يحبرها فيها أنه مشغول بكتابة قصة سبغها بها ويرسلها لها كي تقرأها
قبل نشرها كانت هذه طريقته لتوريط نفسه في كتابة القصة؛ معرفته
أن شخصًا آخر يعرف بها ويظنرها، ستحفزه على إنجازها، وستشدد
محبته.

عائده «ناسك في عابة»، فانشغل، مؤقتًا، بكتابة القصة المستلزمة من
حاجته ومأساة طفولتها. حالك إلى مكتبه، المظلمة نافذته المفتوحة
على حديقة لورد، حظ آدم على الورق أمامه الخطوط العامة التي سيطلق
مها، عرف أن عليه استنطاق الصمت وتأويله، ومنحه صوتًا ومخيلة

كان قد قرأ يوماً عن «البامو» وهي قبائل بختها فقيرة ومعجمها للغوي محدود ويتفحص باستمرار، لأنهم يحدفون كلمات من لغتهم كلما مدت أحدهم! لم تشع المعلومة العابرة فضوله هل تُحدف الكلمات اعتباطاً؟ أم يمتنون قصداً كلمات معينة مرتبطة في ذاكرتهم بالبعد؟

أسرته لفكرة لفترة لغة تكتمش حتى تعرق في لصمت والسكون، ويستعيض متحدثوها عنها بالإشارات، لغة ستلاشي، لا ريب، بما أنها محدودة، وبما أن الموت حدث يومي. ذكره هذا يحدثه بشكل ما، بذت له كأنه كانت تنتمي إلى هذه القبائل وتحدو حدو أو فده

مؤكد أنها لم تعرف شيئاً عنهم، ومع هذا سارت على بهجهم، دون وعي منها. اتلعت كلمات كثيرة، وتركتها تعرق في جوفها، لم تطلق بها لا بلعنتها الأم، ولا بلعة روحها الأصلية أو لغة مهجرهم. لم تصمت فقط عن حكي ما مرت به من أهول، لكنها أدت من قموسها اليومي كل ما له علاقة بذكرياتها المَعْدَّة لم تطلق يوماً مفردات مثل: النار، لحريق، الفصل، الاعتصام، لكاء، الارتعاش، السكين، والسيف كأن إنكار مفردات لشر والألم سيحفظ البشرية من المعاناة، بل سبلغى كل أوجه المعاناة من الوجود.

خافت دوماً من دواليب الملابس والخزانات المعلقة على ما فيها، وكانت تفعس على حميدها كلما حس نفسه في إحداها أثناء نعه، ومن هنا تحدت، حضرت له تفصيصة خبائثها هي حزانة الملابس كي تنجو بحياتها، تفصيله ر كم عليها مدت غيرها ليحتزع تاريخاً متخيلاً لجذته من صمتها، وما حدثته، وتعاملت معه كأنه والعدم سواء، انطلق آدم لترميم حبة مقوصة، حياه هشة كأنها رسم «كروكي» بقلم رصاص.

أحب حياتها المفترصة أكثر من تلك الواقعية انغارقة في الصمت والأسرار، وأحب حدة خيالاته وأفكاره، ربما أكثر مما أحب عجزاً

متشحة بالسواد ما نحاش شيئاً قدر محاشيها الحديث عن صفولتها
وصباها.

شكل عام، شاب الحذر علاقتها باللغة والكلام كانت الكلمات
محرّج من فمها بطيئة مترددة، وكثيراً ما كانت حديثها لا تكتمل وبطل
مبتورة مطالبة من أمامها بهم ما يحلو له. حتى أكثر أيام حياتها، طلت
تصق الإنجليزية بلكمة عربية خشنة مزركشة بمعدرات تركية وآشورية
ويونانية.

كانت دموعها قارية، تنكي هي أوقات الحزن ومحطات العرج، تنكي
وهي تشاهد فلماً أو تسمع أعبة. الأعبات العرنسة القديمة تحديداً
كنت تسحراها وتحلب دموعها من الأعماق مع أنها لم تكن تفهم اللغة
كانت عيها تعوررقن إدارات هدهداً أو لمحت طائر عصفور الجنة، لم
بكر أحد يتوقف أمام هذه التفاصيل السليطة أو يربط بينها، إلا آدم اعتاد
أن يسألها عن سر دموعها، فتمسح وحتيها وتحكي له حكاية عرائية
حافلة بالحن والمخنوقات الغريبة أو تغني له أعبة بلعة لا يعرفها وإن
كانت إيقاعاتها تأمره.

في مرة نادرة، حكّت له، عن بلاد فيها حال شاهقه فمها مكسوة
باللوح، ووديان عميقة وجداول مياه وبحيرات يعيطها الأحصر من
كل جانب، وحين سألها خفيدها إن كانت تحكي عن موطنها، لادت
بالصمت، ولم تفلح محاولاته، في جرّها لمطفة البوح من جديد.

يعرف أنها آشورية، وُلدت وعاشت سوانتها الأولى في قرية على
مقربة من آمد⁽¹⁾، ذكر جده مرة أن قرية الجدة اسمها «قرة داش»، بكر آدم
سبب مؤكداً من مدى دقة المعلومة، خاصة أنه حين بحث عن معلومات

(1) ديار بكر.

أكثر عن القرية المسماة «قرة بش» اكتشف أنها حالة من الجدل. يعرف أيضًا أن جدته كذب الاناحية الوحيدة من مذبحة قضت على كل أفراد عائلتها قرا كثيرا عن تاريخ المنطقة التي وُلدت فيها، والحيوط المجمعة عده لم تخبره أي مذبحة بالضغط سكنت حيال جدته، وغُرت حياتها كليًا، ودفعنها للاستماتة في دفن كل ما جرى في ماضيها بأعماق حقيقة، وغُفقت سمواتها القليلة الساعة عليها بصباب كثيف دكن في م بعد، ختم أن المذبحة المقصودة هي مذبحة «بشمو» المُرثكة في 1915 «عام السيف» كما بات يُعرف لدى لسريان والآشوريين.

ربما يكون من بين ما دفع آدم إسي جلسة البوح المعق مع كاميليا في لهما الأول، هو اكتشافه حين بدأ في كلام أنها تنتمي إلى سد قريب ثقافيًا وجغرافيًا من موطن جدته، لم يفعل هذا بشكل واعٍ طبيعة الحان، على الأقل هذا ما حاول إقناع نفسه به لاحقًا

ما كذب واضعًا له، وقتذاك، أن أول ما جذبته لها، كان ستغرافها في نظر إسي المسافة بين قدميها وانعصامها التام عن كل ما حولها، إضافة إلى ملامح من المستحيل أن يشي بالانتماء إلى عرق بعينه

بتذكر كاميليا في لحظتهما المشتركة تلك، فيروره طيف انتسمة

ناسك في غابة

إلى كامبليا مجدي. لطل مرآة يرى بصوء فيها
وجهه ممعنا هي عيانه!

آدم كوستاكي

ربما كان في درسدن وقوات الحلفاء تمطرها بانقابل شديدة
لانمجار، أو في بغداد بينما تُدكْ نصور ربح كروز والتوماهوك الحاحلة
بهول ما تفعل، أو في مدبه مختزعة لحظة قناتها

لا يهم اسم مدينته أو موقعها، فكل المدن المسكوية، أثناء تعرضها
لحظر الزوال، مدينة واحدة

لم يكن واقفا حين بدأ القصف، بل على أصرافه الأربعة، في وضع
أقرب للسجود على أرض المكتبة. لا يعرف أكان يستيق المأساة، أم
أنه كالحيوانات يمكنه التنبؤ بالخطر! لا يتذكر أنه سمع صفارات إنذار
تحذر من عذرة وشيكة، لكن أصوات الانفجارات المتتالية خترقت أذنيه
وترسخت في ذاكرته.

آلاف الأطباء من القتال الحارفة أُلقيت على مدينته مئات
لمسائي والمشات صارت رمادا. البيوت تحولت إلى قبور لسكانها

لاشجرات المزلزلة فرعت الفضاء المحبط بها من الهواء، خاصة أن الحرائق اشتعلت في كل جانب، مكونة عاصفة برية، التهمت ما تبقى من أكسجين. بعض من لم تقتبهم القنابل، احتسقوا وهم يتسولون أعاسهم عشًا، أو حترقوا من الحرارة الالهية. هناك من رموا أنفسهم في النهر، ليُفاجأوا بأن مياهه تكاد تعلو النجون القلائل ثم يفعلوا شيئًا سوى الاستلقاء في أماكنهم، مستصرين بهائتهم، داعين ألا تتأخر، قبل أن يعرّقوا في ضلام دامس. استسلامهم هذا كان من بين أسباب نجاتهم التي تلحّصت في الحظ والصدفة وما بينهما. أو هكذا على الأقل كان الأمر في حالته.

كان مدفونًا تحت طبقات من التراب، فمه ممتلئ به وحلقه متشقّق كأنه لم يعرف رطوبة اللعب يومًا، أما جسده فغير موجود تقريبًا. لا، بل كثيف الوجود كأنما يرن طنًا فكرر وهو يقيق ببطء وسط الركم أنه لأن ناسك لم يعد يشبه أمين المكتبة الذي كانه في شيء. لا مزيد من الانكفاء على صفحات كتاب قديم، أو البحث في قوائم الكتب، أو التحوّل في الممرات المتقطعة بين أرفف لا بهيئة.

لم يكن، في تلك اللحظة المشوشة، واعيًا بذاته، أو مدركًا لموقعه في العالم كان فقط حسدًا يالغ الثقل وحلقًا حافًا كأنما ميطن بالحس وعقلًا مخدّرًا، لكنه كان واثقًا من أنه ناسك عارف بالطو

حظر له أنه اعتد التوهان عن ذاته وفمدها، غير أنه دثف ما يعود إلى المقعة بنفسه. للدقة هو لم يعادها قط، بل لن يقدر على مغادرتها حتى لو أراد، إذ إنه محبوس فيها مثلما هي محبوسة بداخله، ممددة في تلافيف عقله السديمي.

شعر فجأة أن جسده صار حقيقًا وقويًا. غادره الشعور بالعطش، صار بإمكانه بلع ريقه بلا ألم حثيل إليه أنه جرؤ على انقيام، ونفص لترات

والركام عنه بدو، ركاماً وهمياً ونراناً لا وجود له إلا في خياله. حرك
قدميه متوحشاً، فاكشف قدرته على السير. تفحص نفسه بحثاً عن أثر
لحروح المصرة، فلم يعثر عليها. كان قد توقع وهو قد وقع تحت بقايا
حدار منى المكتبة أنه قد صافيه، والآن يسمي يرى نفسه بحر كهما، كأن
شيئاً لم يحدث ابتاه شعور منهم بحية الأمل.

دار حول المكان باستثناء الأتقاص التي بهض من بيده، لم يكن
هناك ما يشير إلى الدمار. ران صحت مضق، وبدا الهواء سميكاً كأنها
يمكن الإمساك به وانقبض عليه. واصل سيره، فلاحته به غابة من
أشجار البوط دق النظر في ما حوله، فاكشف أنه أفاق منذ البداية
بدخل الغابة، أو بالأحرى على أطرفها. أعطاها ظهره، وخرج مقتسماً
عن مسيته لا يمكن أن يعود هذا الركام لمسى المكتبة المركزية حيث
عتد أن يعمل على مدى السنوات العشر الأخيرة. لم يكن ثمة عابة
سجور، مقر عمله، فقط حديقة بها ألعاب أطفال نادراً ما يععب عليها أحد.

خارج الغابة كان ضوء النهار كبيراً، مشي طويلاً دون أن تعرف على
المكان غاب النهار، تلاشت الشوارع والمباني المألوفة، واحتضت
النباتات بلا أثر يدل على وجود سابق لها. انته إلى أنه يسير في مدينة
مختلفة لم يواجه فراغ كما طن لأول وهلة، إنما مدينة أخرى لم
يستوعب تفصيلها لأنه كان مشغولاً بالبحث عن معالم مدينته الأم.

بعد فترة، لا يعرف مداها، توقف عن انسحب راح يحوس في
الطرفات المظلمة، برداء داكن وقبعة تصح وجهه بعداً كوسباً مألوفه
كان قد وجده، ملتاة في أحد الأركان يقطع السروب كقطعة من ليل،
ويخطو كالمأخوذ حتى تتلعه العتمة وتعلق عليه.

عندما يصل إلى الميدان الرئيسي. يرى حلقة نار مشتعلة دوماً،
يحترقها غير عابئ بالآلم، ويحاولها في الدائرة الكبيرة المحاصرة

باللهب لمتراقص، يبدأ رقصته الممدوحة، يدور حول نفسه، مطء أولاً، ثم يتسارع لإيقاعه رويداً، يرقب العالم عبر مساح النار المبهترة، وحين يتسارع دورانه، لا يكون للثبات مكان في عالمه، تصيع الحدود وتتلاشى الأشياء، وتواجه عيانه عمامة برتقالية مرتعشة تحالطها حمرة مترددة ورقيقة مائلة للاحصار يصير كلهواء، ولا يسري بنفسه، لا وقد سقط مكوّمًا على الأرض غير منتبه لحرارة تسع وجهه ويديه، ولا لهسيس لسان المطفقة، لأن ذمه يكون مسحورًا بتريمة ترددها جوفة غير مرقبة، بأصوات شجية متناغمة.

ما إن يحل الصمت حتى يفيق الغائب عن الوعي داخل حلقة النيران بذلك رفته، وينفض العبار عن ملابسه، ويغادر دائرة، أصبح ابرقص فيها، طقسًا لا غنى له به

أصبح لا يكف عن السير البطيء في الطرقات، مفكرًا في ما لا قدرة له على فهمه. يحاول استعادة لتريمة المصاحبة لإغماءاته المستكررة، فلا يفلح ينشغل عن عجز ذاكرته بأن يُمني - على هراع - رسائل لا نهائية، كن حملة فيها لا علاقة لها بما يسقها أو يدها انلامعنى في اكتماله!

«أن تكتب الرسائل يعني أن تتعري أمام الأشباح»⁽¹⁾ تتردد الجملة في ذهنه فلا يتذكر أين صادفته. يشعر بأنه شبح، بل فكرة الأشباح عن نفسها لا صبر إذاً ولا كبير محاصرة في التعري أمام الذات، ثم إن هذه ليست رسائل، كيف تكون كذلك وهي مجرد جمل تفتقد الاتساق! كما أنه لا يكتبها، فقط يملئها على لا أحد يندها في الهواء

ينتهي تجواله دومًا بالوصول إلى غدة أشجار البلوط الواقعة على أطراف المدينة والمنتهية بمنحدر لا نحاة مه صارت لمخاض المثالي

(1) الجملة هرائر كافكا من «رسائل إلى ميليت».

له يتسلل إليها كل ليلة بروائه الأسود الطويل وقبعته الغريبة يصبح هو والليل قطعة واحدة.

في الغابة، يتحول إلى موحد يعيش لحظة بلحظة، ولا يكف عن التحوّل بين حذوع الأشجار، حتى يصل إلى بقعته المفضلة في مركز العناية التي تهب عليها الرياح فيصير حفيف الأوراق صريراً، يصاعقه صمت المكار، يبدو كصراخ مكتوم داخل العناية المعتمة متشابكة الأعصان، يسير متذكراً حياة ساقه كان فيها ناسكاً صيباً، مُبَتِّ قله على جوهر الفراغ، وعارفاً بحكمة الطاو.

يتحط بين حذوع الأشجار مستنشقا روائحها المحلوّصة بعطر الأوراق لتحلله بفعل المطر. في الصباح يتبلل بالندى فيعمص عيبه، ويرمي نفسه على الأرض الرطبة المظلمة بالأشجار وهو بكاد يبكي اشتياقاً إلى كل ما لم يعرفه أو بقائه لطائفاً ناك إلى الرؤية لا مجرد النظر، إلى التحديق في عين العالم، لكنه في عتمة عدا البلوط، دت الصرير المنذر بالشرور، استعذب استحصار إحساس المحقق داخل ذاته والمنفصل عن ما عداه.

نروفه فكرة العناية المحيطات أكر، والصحاري الممتدة بلا نهاية قد لا تُقدّر بها هذه العناية من حيث المساحة. لكن الغابة - أي عانة - لا حدود لها في عس السائر بداخلها، نورثه الإحساس بأنه نقطة في محيط شاسع لا نهائي، تسلمه إلى الشيه. ربما لأنها عامصة، كانه الإضاءة أو حتى معتمة في بعض مناطقها.

يعمص عيبه منتصباً لأصوات الغابة المتداخلة: حفيف أوراق، هسيس حشرات وهوام، عيق غربان، نعب يوم، وزمجرة حيوانات موشكة على الاقتتال على معدة تتكثف رائحة العطر ولرطوبة في أنه ممترجة بالرائحة العسوية لأشجار البلوط يد يحملها الهواء الثقيل.

يهض مواصلاً خطوه حتى يصل إلى طرف العاية من الجهة الأخرى، حيث صحرة ضخمة تتوسط بقعة، يصلها الضوء بالكاد، يحلّس فوقها مجترًا حيواته السابقة، وحالته بشخصيات وكائنات وعوالم محتزعة. ينظر للأعلى فيصير الأعصان انكثيفة وفد حجبت السماء، فتتحيل سماء أخرى، ترتسم على صفحاتها رسومات ملونة تمر مر السحاب وتُعيي عنه سماء معبرة تختص عالم أكثر ألفًا من العالم الحقيقي أحيانًا يشعر شوق مُحرق لحياته السابقة كعجري لا يستقر في مكان، قبل أن ينفض انشوق عنه خوفًا من مكانية تحوله إلى شهوة تملكه، فير حل طمعًا في إشباعها.

كأنما يحاول إقذ نفسه يقول «يكفيني ما رأيت، وما سبق وعاشت في الماضي». بات مقتنعًا بأن العالم بأسره حلم خطر له ولم يبق منه بعد عاشر سنوات طويلة من حياته السابقة هائمًا على وجهه في الطرقت، وعدمه ترحاله أنه لن يتعلم منه شيئًا إلا بالمعروف على داته أولاً وانغوص فيها. «يكفيني ما رأيت»! يكرر بينما يتحرك بين جذوع الأشجار، أو يتخط في شوارع المدينة لعوية

«يكفيني ما رأيت، وما سبق وعاشت في الماضي»! يُهيأ له أن الحملة ترددها حلله كائنات تتخط في فجاج ووهاد لانهائية، مثله تخرع عوالم سرعان ما تمس منها، فتعود لواقعها لمحيط، وحين يلطمها تعيد اختراع عوالم جديدة، أمله أن تُخرجه في النهاية من تلايف عقل ذلك أناسك المتخط في عتمة غابة.

حلال عمه كأمين مكتبة، اعتاد أن يقضي معظم وقته بين الكتب منتظرًا دواكًا محتملين عرف أن الناس تفصل الذهاب إلى الشواطئ والمطاعم والحانات راقب لفتار بينما يتراكم فوق المجلدات، ثم بدأ الانغماس في القراءة كأنما يواسي الكتب عن تجاهل الآخرين لها، ويعري المكتبة العارعة من الحياة معظم لوقت تحول الأمر من عادة

إلى إدمان. فكر في أن يكتب، شرع في مشاريع كتابية عديدة سرعان ما هجرها. «مكتبات العالم ليست في حاجة لإسهاماتي» أفع نفسه بهذا لأنه أدرك باكراً أن الكتابة محاولة لنحت تمثال تلح عند حط الإمتواء. كلمات تذرورها الرياح، تسجج وانحداع بوهم الخلود وإيماناً دستحثة مفترضة ورفضاً للتبجح والانحداع بوهم لخلود، فضل أن يكتب بصورة على الهواء، أو يحطها على الرمان سد مرتعشة، ويسارع إلى محوها في الحال. على طريقته الخاصة ويطقوس غير معهومة لسواء، أخذ بمجد الفناء ويتعب في محراب العدم لضالماً كان وسوف يظل سائلاً مخلصاً للعابر والمتطائر.

ليس كغيره من المسلمين للعدم سد البدء عارقس في اكسل مدعين أن كلهم هذا صريقتهم في التماهي مع للشيء، فمتعته القصوى تمثّل في الهدم بعد التشييد. في ملاعبة الرعب في الإنجاز وتنميتها قس السقوط بها ومعها من حائق لتتكسر إلى مثل الشطايا، ويتردد صدى تحطمها في المسافة بين الأرض والسماء

مع الوقت، صارت له علاقته الخاصة بالسماء سماء زرقاء وبقية ليس ما يتعبه، إذ بفضل عليها سماء تحتل ررقها العميقة بأبيض السحب ورمادي الغيوم. من وجهة نظره، تشكيلات السحاب هي ما يمنح لسماء رونقها ويضاعف غموضها ويسمع عن متأملها الملل

سماء هذه المدينة العربية كتاب أبجديته لعيوم ومسرح يتطلب مُشاهدًا فقط لالتقاط أهدف العلامات والعروض المُشَفَّرة المُقدمة بلُغة الحفاء، لغة الغيوم. حين يندفق جندياً ونجح في فك شبهات هذه اللغة، يرى في صفحة السماء بيتاً معلقاً بين السحب، امرأة في صورة وردة تتدحرج من فوق تل، ورجلاً وامرأة جالسين على مفعد يرنوان نحو بئر، خلعهما بستان ريتون وأمامهما صحراء شاسعة، وطفلة تطيرها ركة لتصطدم بالجدار المقابل فتحترف بعدها السقوط من عل، وصغيراً

يسلق الأشجار، وكوَحًا خشبًا - تعطي عراش الورد واجهته - على
أطراف غابة

كل هذا ليس محض تهوُّات، بل حقيقة ماثلة، تمامًا كمدية خيالها،
هي موجودة وواقعية لأني حطرت ببذله، عقله المتعب أنشأها، وأضاف
بها التفصيلة تلو الأخرى حلم بها وسارت روحه في دروبها ومحبياتها،
بعيداً عن ثقل الأنقاض ورنحتي البارود والاحتراق لمحتلين لرتبه
في نموسه الشحصي، هد أكثر من كافٍ كي يجعلها كاملة الواقعية،
تماماً كالشاح المترائية له حين يعمص عييه، ويحاول تناسي أنه لا
يشعر بالنصف الأسفل من جسده.

ما عليه حين يرغب في إراحة التراب والركام من فوقه، وإبعاد صدى
الصرخ والعويل عن أذنيه، سوى إغماص عييه وتخييل غابة متشابكة
الأعصن مظلمة ورطبة جدوع أشجارها يعلوها فطر أخضر، وتتسلفها
نمات بكاد تحتفها بالتركيز جيداً في الغابة التي احتلت ذهنه لتوها،
والثبوت على التوهان بين دروبها المتقاطعة، سيرى نفسه فيها. شبحاً
وحيداً وملابس داكنة وقبعة تلفي بظل داكن على ملامح وجهه الوحيدة،
شبحاً يتربح في سيره من درب لآخر. مع كل خطوة يحطوها قرينه
لشبحي شبيذ المدينة ندرجياً في رأسه هو ثم أمام عييه، وتحت
أقدامه، بشرط أن يفصل تمامًا عن وضعه الراهن ويتناسى آلامه ورائحة
سموت المحلقة فوق رأسه عليه تحرير قلبه من كل المشاعر الزثلة،
وتثبته على جوهر لهرع، تمامًا مثل قرينه الشبحي، وحينها لن يسمو
فقط فوق صعقه وعجزه، بل سيكون أيضاً من العرفين بحكمة «الطاو»

يعمص عييه فتحرقه كما لو هستهما مادة كاوية. يغيب عن الوعي،
وحسبما يفوق مجدداً، يشعر كأن هناك من يصرب رأسه شاكوش. يهاجمه

المجوع بصراوة، ويتضاعف التهاب حلقه. تذكر كيف كان يفصل تناول
غذاء سريع من عربة طعام في ساحة بيع المأكولات القريبة من مقر
المكتبة. يشتري سلاطة حضراء في عوة بلاستيكية وشطيرتي «هوت
دوج» أو «هامبورجر»، ويقطع الطريق ليجلس فوق مقعد رخامي مثبت
على رصيف الكورنيش يدير ظهره للشارع، ويلتهم غداء شهية بينما
يرنو نحو النهر متأملاً الجانب الأحدث من المدينة على الضفة الأخرى
مع الوقت، باتت تلك عادة لا غنى له عنها في استراحة الغداء. أحياناً
تجلس بجواره على المقعد نفسه أو على مقعد مجاور شاة يتناول
طعامها بسرعة ثم تعادر. اعتاد مرآقتها وهي تعبر الشارع متعادية العود
برشاقه لائحة أكروبات. قرر أكثر من مرة أن يسدها بالحديث، لكنه كان
يؤجل هذه الخطوة صحيح متنوعة بالأمس فقط قال إنه سيعرف عليها
في الغد، أقبح نفسه أنه رآها أكثر من مرة تحتل النظر به حين تظنه غير
مسته لها لمحها تبتسم لنفسها وهي شاردة فأعجبته سميتها، وحين
التقت عيناهما أحب ألح نظرهما.

صاعب التفكير فيها من أوحاعه، حاول حريث يديه، فلم يفتح
أطلق حصيه وعود التفكير في مدينته المتخيلة. راقه أن تكون معالمها
متغيرة على الدوام، وأن تغيرها المفترض هذا، لا يسر وفق نموذج
متظم يمكن التألف معه وتوقع خطوته المالية، بل يترك نفسه للفوضى
متحالفاً معها راقصاً على ألقائها.

لا بد أن التركيز في محريات التبدل الدائم يُسبب إلى الدور، لذا لا
عجب إن عصت طرقيها بأحساد مترنحة لا تكاد تقوى على المسير.
تخلب نفسه يقوم من بين الركاب مجدداً، ليواصل مسيره في ممرات
الغاية ودروب المدينة. قرر أنه وحده من يتقن التعامل مع دوار المدينة
المتأرجحة متدلة المعالم. يقطع شوارعها عائداً عما حوله عابلاً عنه،
ومحدقاً في نقطة ثابتة في الفراغ المواجه بعينه.

في غفلته وتوهماته تراءى له مشاهد حيوات سابقة يوقن أنه عاشها
وتنقل فيها من حال لأخر ومن هيئة لأخرى تخالته شذرت حيواته
وشطياها وتلعب معه:

مرة راعي غنم، يعيش فوق إحدى هضاب آسيا الوسطى في عصر
بالغ القدم، لا شيء حوله سوى مراعي بلا نهاية، وتغريد طيور بعيدة،
وعواء ذئب اعتراه عدوه الأول خوف على أعماه
تروره هذه الذكرى، فيقبض قلبه ما أساس حبة تتمحور حول قطيع
غنم.

ومرة أخرى كاد ريفية في قرية يغمرها انطلام في ذلك ليل، قس
فرون امرأة وحيدة تحاف فيضن الهر، وتقيم في بيت صبي معروف،
تسهر الليالي مترقة أصوات الاحارج، حائفة مما قد يعانها به الليل
احالك - صديق لساح واعواء والعويل - الذي داغتها يومًا بطرقت
على بابها الحشوي المتهالك، ويعريب ذاكر يطرب منها مكانًا يبيت
فيه، وقبل أن توافق أو ترفض، يادري بالدخول ولجلوس على حصيرة
الأرضية، واشعلت هي بالتفكير في طريقة لإفاده بالمغادرة

شعر أنه لا يراى تلك المرأة، بطريقة أو أخرى، ثم تعيب الذكرى
وتقسمحل

كان أيضًا سائحًا في جزيرة الفصح يجلس متعبًا فوق قمة ما يتأمن
تماثيه هائلة اللحم، ويطر للأسفل فتتملكه رغبة في السقوط وفي
تحطيم كل ما صيغ عمره في نحته، وكان حنديًا صينيًا قديمًا يركض فوق
سور الصين لعظيم بعد هلاك حصانه - لإبلاغ قائده برحبت العدو
صوب مدينتهم.

أي عدو؟ وأي مدينة؟ لا يمكنه الإجابة.

في قرنة آسيوية منسدة، كان طفلة حافة تحرس حقل أرز نهش
العصافير عن السابل المثقلة بالحب. كان ثمة عصي متوالية، ممداد
الحقل، موصول بها أسلاك معلق فيها غلب صميج بداخل كل منها قطع
معدنية صغيرة، تهر الطفلة طرف أحد الأسلاك فتصاعد قرقة معدنية
مرعحة يفرغ العصافير وتحلق بعيداً، قبل أن تعود محوياً بعد قليل،
والطفلة تجري متعة من ناحية لأخرى تفرغ الأسلاك صاعدة الصميج،
تنبو كموسيقى مهمك في العرف على آلة عملاقة تستمرها حيالات
مئة تقف الطيور فوقها بلا خوف، ويصابقه عطر المياه في الحقل
الشاسع، فتعمر عبيها خالمة بريحه ماحة ليلاً ونوم تحملها أحلامه
إلى عالم حال من الصميج المعدني وعن حالات الماتة والعصافير

لكن أفضل شذرات حيواته السفة، تلك الموحية له بأنه كان دودة
قز يوماً ما يتحل نفسه دودة نعمة في براح من أوراق التوت الشهية،
بلتهم الوريقات حتى لا يعود قادراً على التنفس، ثم يسبح شرققة من
حيوط الحرير يحتفي بدخلها. يا للشهامة والجمال، وحده في دفع
الشرققة وظلامها يتطر أن يختار له الفدر أحد احتمالي لا ثالث لهم.
إما أن يبعث من شرققه فراشة حرة قصيرة العمر تشتوي حياتها بتلمير
ما مسحه من جمال حريوي، أو أن يسعه صانع حرير وعرقه، وهو داخل
شرقته لا يزال، في ماء ساخن كي يتخلص منه وينقل لحيوط الشمية من
التدمير.

أي فلاح! وأي بهاء متوار خلقها!

يشعر بتيسر جسده، تسحه ضحة قريبة من أفكاره، يأمل أن تكون
دلالة على حياة محمله بالجوار، ثم يخمر أنها ماحمة عن انفجار
محدود على النصف الأخرى لنهر ينضاعف تيسر حسه يعن أنه

مشلول بالكمال، لا شيء قادر على الحركة فيه سوى مقلتيه وأفكاره،
لكن حركة مقلتيه من تعيده كثيرًا لأن ما يراه مهزور وغير واضح

يفكر في قطر - يعمل بالفحم - يجوب مدينة خيالاته من أولها
لآخرها، يتوقف بالصدفة أو حينما يروق الأمر لسائقه والأمر مقرر في
الحالين عبر نافذة القطار فقط تثبت معلوم المدينة سبيلًا، بحيث يمكن
لروده لقليلين، تأمل المشاهد المتلاحقة بالخارج، المشكله الوحيدة،
أه من داخل القطار، كل شيء يبدو بالأبيض والأسود مع انكثير من
الرمادي العنق بينهما القطار المتهالك، السائر دومًا في مساره الحديدي
المربع على حدود لمدينة، يخرج منه كم هائل من دخان يطغى على كل
شيء، فتحول السحب إلى تشكيلات فحمية مدورة بالسر، ولأشجار
إلى كائنات داكنة عملاقة، تحركها الريح، فيحال لمن يشاهدها أنها على
وشك السقوط فوق المدينة المتهالكة وركبها

من حسن الحظ، أن المنظر من خارج القطار مختلف، فالألوان كما
هي، متمسكة تنوعها والاختلافات بينها، ثمة فقط عبر دخاني فحمي
للون ينطلق من المدحجة المتحركة، قس أن تتلشى في الهواء

ما أن يصغر القطار ويغيب، حتى يتعنى التاسع العارف بالطوار أن
يكسر ويتحول إلى ركم، أو يسقط من فوق المنحدر لخطر ولا يراه
أحد بعده. فالمدينة لا يقصها صجيجه الدفع للبحر

يحلو له أن يركبه لساعت طوية، يهملك في العزف على آلة يتدد
نغمها ما إن يبعث منه، دون أن يتأثر هو أو حتى يشبه يفكر في أن
سقوط القطار، لو حدث، سوف يأسبه حتمًا، إذ سيمسحه مادة مناسبة
لنأمن، إصافه إلى أنه لن يصاب بسوء سوف يجد سريعًا طريق العودة
إلى لغابة المظلمة، وفيها سوف يحلم بقطار ويشق إليه، وفي القطار
يسمى السقوط والتدحرج إلى ما لا نهاية، أما دخل حقيقة لدر فيغيث عن

كل ما يعرفه، ويتوحد بالشار باعتراف اللعالم عر اهتزازات لهبها، منعصما في
ترنيمه ينساها ما إن يفيق.

على مهل، تخفت المدينة بقطارها وغائب المعتمه ودوارها في عقل
الراقدين الأناص. يستحضر جلسه غدائه اليومية، إحدى المتع لقليلة
في حياته. يكديرى شبة برشاقة لاعبة كروبت قادمة بحوه مبسمه.
تجلس بجواره، تتأمل مثله بهراً تغلي مياهه وقتصاعد منها أبخرة بحاسية
كريمة الرائحة. تُحمي الطائرات المعادية السماء ويجدد القصف، يقبض
على يد جارتة مطمئناً إياها، وممتناً لأنه هذه المرة على الأقل - ليس
حائباً على ركبته بين معرات مكتنة مهملة

فُلُك ابن منظور

قرأت كاميليا قصة آدم لمعنونة - «نست في غابة»، فسكنتها غابة رطبه ومدينة رثلة لاحظت أنه استعاد فيها من نصيبه بيت السحب، بعد أن كانت قد حكّت له عن مخائنه بها، من أن لآخر. استعادت محيلنها بيتاً أشبه مدعة معلقة بين السحب، يقبع معرولاً فوق تل، البيت لقدس تحيط به حديقة شاسعة غير معتنى بها، تفتّح على عادة مصبرة من أشجار الكافور والجرورينا والحدود، ومسيحة بسور بالغ الارتفاع

من الخارج يبدو مدراً بالبشر، إذ يُشبه سحناً يُنسى نرلاؤه وتتجاوزهم الحياة، ومن الداخل يقترب من «بيت حُح»، غير أن ما يضيء على منظره مسحة من جمل حاف هو موقعه المرتفع عن سطح البحر، ما يومهم الباطر إليه بأن السحب مسخفة، بحيث يبدو الدور العلوي منه كما لو كان معلقاً بينها

البيت البادي للناظر من بعيد كقعدة معلقة في العيوم، وسق لها نحلها مراراً من قبل، هو ما أوحى لها بكتابة قصة ترد بها على ما كتبه آدم، وهي أحسن تشككت لملامح اعامه للقصة وعنوانها في مخيلتها. «حيث انسحب منحفصة». عنوان لا يشي بالمتن، وهذه مرقها فيه.

رأت بعيني حيانها، رجلاً قوي السية - رغم اقترابه من الستين - يقف

مرويًا منتصبًا مسود عالي، وأربعة فاصدة يصوبون نحوه منادقهم، بينما يحسق هو في نقطة ثالثة أمامه، وعلى وجهه ترسم أمارات الترقب لا الحوف.

كسب المشهد الافتتاحي سرعة كأنه موجود بداخلها منذ الأزل، وما عساه إلا لكشف عنه وإحراجة إلى حير العلقن. هُجِع لها أنها ترى ليست انقسام والشبح فتخرقه وتتمر به، مسرعي أروفته الداخلية ودهاليزه، وتستريح فوق أرائكه ومقاعدته المتهالكة، الدلة على عرافة مصيه

«أمام بيت معرول فوق تل، أبرلته عربية عسكرية سوداء ذات زحاح معتم، ثم خرج، في أثره، جديان يحملان سلاحيهما

لحظة رفع رأسه لتأمل الهيكل المهيب للبيت المتهالك، توقفت عربية ثانية حلف الأولى مخلقة عاصفة من عبار ترحل منها أربعة جسود أكثر شراسة من زميليهما اتجهوا نحوه بصبر نافذ، ودفعه أحدهم بمؤخرة السدقية كي يدخل، فكاد يفقد توازنه.

أجال بصره في أحراش تقبع في وسطها «القيلا» المهجورة دون أن يبدي أي تعبير. منذ سحبه من فراشه في الصباح حافظ على وجه المقامر مستعدًا لأسوأ السيناريوهات حين رفاقه القدامى عن مواجهته أرسلوا فرقة لا يعرف أيًا من أفرادها لاصطحابه اكتشف انسحاب الحرس الجمهوري من القصر، وتسليمه للقوات الخاصة اقتحموا غرفة نومه وأفزعوا زوجته أمروه بالتزام الهدوء وعدم المقاومة. «متفصل ضيفًا لمدة» كان هذا كل ما باحوا به. رفضوا السماح له بالاتصال بمساعديه «أوامر وزير الدفاع». لم يضيفوا إيضاحًا آخر

تسللوا به من باب خلقي، وأدخلوه العربية العسكرية ذات الزجاج المعتم، وتبعتهم عربية أخرى مصفحة.

شعر، خلال الشهور الأخيرة، بأن الحلقة تضيق حوله. لم يكن

هناك شيء مدموس، إنما إحساس غريزي كان عليه الوثوق به وأخذ الاحتياطات اللازمة قبل سنوات كان معهم وهم يراقبون قائدهم متجهًا إلى حتفه مغمض العينين، تاركين له الحيل الذي سيشتق نفسه به. استغفوا أخطأه لإحكام الحصار حوله وسلموا رأسه على طبق من فضة لمغتاليه. عرفوا مبكرًا بأمر الخلية السرية المتأمرة عليه، سجلوا اجتماعات أعضائها، ناهى إليهم أدق تفاصيل مخططاتهم، وجهروا خصة مضادة. لم يحدروه صحيح أنهم لم يحرقوا على إخفاء الأمر كليةً عنه، لكنهم حرصوا على إبلاغه به بطريقة مهونة من المؤامرة موحية بأن كل شيء تحت السيطرة. من خبرتهم به كانوا واثقين من أنه وصل إلى حالة من النشوة والافتتان بالذات لن يلتفت معها لأي تحذير ولن يصدق أي إشارة عن تحركات منوطة له بالسنة لهم كن القائد رجلاً ميتاً منذ زمن. أصبح وجوده خطرًا على الجميع لا على نفسه فقط. صبر زئدة دودية يجب استئصالها لإنقاذ باقي الجسد.

لكن ماذا عنه هو؟ حاول تخمين نقطة مفترضة غسل الرفاق صدها أيديهم منه. فلم يفلح. لفت نظره أنهم لم يقتلوه مباشرة ولم يدروا انقلابًا صريحًا استبعد أن يكون هذا ما هم مقدمون عليه، ليس قبل فترة على الأقل.

لم ينتبه إلى أنه توقف عن السير إلا عندما لكره جندي آخر ببسيفه حائثًا إياه على صعود سبيل درجيات تقود إلى شرفة «الميللا». أحاط به لجنود الستة في لشرفة، من الداخل ظهر صابط برتبة عقيد، شد الجنود قلماتهم وحيوه تحية عسكرية، رد عليها بحماسة وتصرف كأنه لا يرى السجين رفيع الشأن أو «المُنقذ» كما سيروق لهم أن يطلقوا عليه سخرين

أشار الضابط للجنود أن يوصلوا «ضيفهم» إلى الغرفة المخصصة له. بحرص تركوه فيها وأغلقوا الباب خلفهم. وصلته أصواتهم من الخارج. في الطريق إلى هنا لم يوحه أحدهم كلمة له، كما لم يردو على أسئلته،

فتوقف عنها. الغرفة شديدة التشف، فنشها بدقة ولاحظ خلوها من أي أداة حادة. استلقى على السرير بملابسه وحذائه، وأغمض عينيه محاولاً تجاهل الصداغ الأشبه بإعصار يضرب رأسه منذ الصباح نام رعمًا عن الصداغ»

رفعت كامبلا رأسها عن حاسوبها فليلاً، وفكرت مندهشة في قدرة الخيال وأجنحته المحلقة، حطر لها أن تبحث في المعاحم القديمة عن مترادفات مفردة «الخيال» وأن تتعحص معانيها ودلالاتها لمشوعة. أغوتها هذه العبة المعوية، ورغبت في إغراق نفسها في معجم «لسان العرب»

أصحكتها المفارقة الساخرة؛ أن يُغرق شخص ما نفسه في «لسان العرب» فهو ناقص مع رؤية واضح المعجم لعمله، ماذا كان «س منظور» ليقول عهد، هو الذي أراد لمعجمه أن يكون فُلُك نوح لإنقاذ اللغة العربية ونقلها إلى ير السلامة!

«وجمعُ هذا الكتاب في زمن أحله بعير لعربية فحرون كم صنع نوح الفُلُك وقومه منه يسحرون».

تدك كانت كماته، وما أجملها من استعارة تحيلُ أن كتابًا ما أشبه نُفُك، حمولته الكلمات والمعاني، بمحر عباب بحر صاحب، يرفعه الموح ويهوي به، والكلمات تتحطّ إحداها في الأخرى فتتداخل لمعاني وتحرر متقله إلى فضاءات جديدة.

كست كامبلا في أوراقها عن الإحياءات السلبية لمفردة الخيال، عن ربطها بالظر والتوهم والمُشكِل من الأمور وما يترأى للمرء في النقطة والحلم من صور. لمتت نظرهما، العلاقة بين السحاب وأحد مشتقات مفردة الخيال فالحال هو: «السحاب الذي إذا رأيته حسسته ماطرًا ولا مطر فيه»، «وَتَحَيَّلَتِ السَّمَاءُ أَي تَغَيَّمَتْ»، و«نَدَلَ حَيَّلَتِ السَّحَابَةُ إِذَا أَعَامَتْ وَلَمْ تُمَطِّرْ»

اعتبرت كاميل الصلة المقترحة من «لسان العرب» بين السحاب والحبال، علامة على اختيارها الموفق لعنوان قصتها الجديدة. ترجمت لأدم ما وجدته ذا علاقة بالنظر.

كان آدم قد حكى لها عن علاقته بطفله أثناء طفولته، خوفه منه ورعيبته في إلعائه. وهي تصفح «لسان العرب»، قرأت عن الطائر «خاطف طله»، ذلك الذي يروعه حيانه إذا يرتفع عن الأرض فيهباً له أن طله صيب، فينقض عليه لبواجه الفراع واللاشيء.

فكرت في آدم على هيئة طائر خاطف لطفه مسكون بخيانه فوجدت أن الخلطة تقتضها مسحة الخوف لمحيمة على حياة آدم وبالأخص طفولته، لكن من يعرف آدم بما يكون الخوف اللامطقي من سمات هذا الطائر - غير المعروف لها - أيضاً.

كانت أحر ربطه «لسان العرب» بالطل هو الطي، من صربت به العرب لمثل في اترك والنفور، ولحل النفور مثل لطبي لأن الأخير إذا فر من شيء لا يعود إليه أبداً يقول لمثل: «أتركه تركً طلي ظله»، غير أن آدم وإن كان أول اربعين في ترك طيه، إلا أنه دائماً ما يعود إليه لتفحصه وتأمل دلالته واحتمالاته، كما أنه لا علاقة له بالترك والنفور، هو المسكون بما صي جدته غير المصرح به، وارتعب في استعادته وتشييده والسكن فيه لا هجره وسيدته.

هذه على الأقل، ما همست به أسرارها لكاميليا، حين ناح لها بها في الناحية الأمامية لمتحف كوكا بيراع، حيث جلسا لوقت طويل، قل أن يتوجها لتناول الغداء في مطعم «مالوستران بفتيتس» المواجه لمتحف، ويتجولا معاً بعدها في المدينة القديمة، ويتسكع بميدان «ستارو مياسك» محتليين بجموع المحتفلين الراقصين فيه على وقع موسيقى صاخبة أرسلت كاميليا رسالة إلكترونية لأدم بالجمل المترجمة، وعدت

للتفكير في «حيث السحب منخفضة»، وفي كونها امرأة مختلفة وفقاً
للحديث ضعيف النسب: «لا يقص على الناس إلا أمير أو مأمور أو
محتل» تساءلت هل هي مصادفة أن الحيال والاختيال من جنس لغوي
واحد؟

ألحت عليها من جديد، فكرة الكتاب السفيه المنقذ من العرق،
تحييت كلمات عريقة، وحروفاً ندوب في أسماء كصوص ملح،
ومؤلفاً يطمح لاستبدالها وحفظها في فلك أفسى أيامه ولياليه في سائه،
فلك يغرق الشر في صمحاته وبين مواده، غرقاً أيد، عينا.

لكن ماذا عن العكس؟ أليس أكثر إغراء؟

في مقابل كتاب يطمح إلى أن يكون فلك موح المنقذ لثقته والحامل
إياه إلى بر الأمان، لا بد من وجود كتاب له أثر انقيصان وفعله، يطيح
بكل ما يقابله وبشظي كل ما فيه. كتاب يُغرق شخصياته وقراءه في بحار
لا نجاه منها، ويتلع كلماته ومعانيها في فجوات مظلمة بداحه

خطر لكاميليا أن هذا هو الغرق الجميل، تحيلت انكسار لطافية
فوق السطح بعد أن فقدت معانيها. كانت لتقول إن الكلمات في حالتها
هذه هي أحمل العرقى، لكن معها اعتقاد واسخ بداخلها عمده أن كل
الغرقى جميلون بالضرورة والتعريف أحساد طافية على سطح أسماء
بأعين رائية. في الأعماق، في عياب الشمس والأكسجين، وفي حضرة
الطنين والاحتناق، جاءت لحظة الإشراق، حيث الرؤية بمعناها المطلق.

شغلها، من حديد، مصير مطلقا الوقف في مرمى برن انقاصه
المحملة، هل سيتحول جسده إلى مصعقة من كثرة ما احترقته انطلاقات؟
أم تختار له مصراً آخر فتغرقه عرقاً حرفياً أو مجازياً؟

لسبب عجرت عن تحديده ما لها بطلاً مراحيد مد انكلمه الأولى
في قصتها. ربما هيكل البيت القائم وعماراته الكثيرة هما ما أوحيا لها

بهده، وربما عزلته وارتفع التل الذي يستكين فوقه، وربما حتى لُسحب المنخفضة رغم جمالها أو بسببه

لا يمكنها لعزم بمصير بطلها النهائي، قد يفاجئها - أثناء لكتابة مقترحاً عليها مسرّ - آخر للأحدث، وقد تحذف المشهد الافتتاحي لاحقاً وتبدأ قصتها وهر مقبم فعلاً في ابني القابع فوق التل. ما عليها إلا الصبر ومواصلة الكتابة والإصبات لهمس بطلها كما كانت تنصت لرفاق الطعونة الحبالس، وتخرج لهم حكايات مستقلة، ثم نستلهمها لاحقاً لاحتراع حيوات بديلة - عن حياتها مع أبويها - تقصها على صديقات الدراسة.

لس الأمر أي كانت تتراً من أهلها، أو لا تحبهم كفاية كانت فقط مسحورة بتخييل فضاءات أخرى، إمكانيات وحررت تتيحها لها أحلام يعطسها، وأكاذيبها في لحقيقة لم تكن تكذب، وتنت كانت مشكلتها أو مشكلتهم لو شئنا الدقة، كنت تصدق تماماً ما تحكيه. عديم تخبر رميلاتها أن أباه صبيب يقضي وقته بين عياداته وعرف العمليات أو طيار ينتقل من مطار لآخر، أو مهندس تروول يعيش في موقع م بصحراء بعيدة، كانت تدهش حين يعود إلى البيت، وتجدّه قد استيقظ بشيء، وعلى وشك بدء نهاره بعد الآخرين بساعات طويلة لم تنبه وقتها إلى أن كل الحيوانات والمهن التي اختارتها له كانت تتطلب أن يكون بعيداً قائماً بحيث لا تراه، لا لماماً

اكتشفت الأحصائية الاجتماعية في المدرسة ما تقوم به، واستدعت وبني أمرها. بهدوء شرحت لدولت أن حكيات ابنتها واختلاقاتها، إلى جانب دلالتها على مخيلة واسعة، تشير أيضاً إلى علاقة مضطربة بأسرتها. سألت أسئلة شخصية متتالية لم تسرك كاميليا مغزها، وإن لاحظت أن إجابات أمها مراوغة وتحانب لحقيقة

في انييت خضعت لمحاكمة مطوّلة، لم يطق فيها الأب لمتحهم
مكنمة، وأعلنت الأم، في نهايتها، أنها تشعر بالعار لأكايب ستها، ولا
تفهم مبررًا لها

«أأملي حاب فيك!» قالت دولت ووصلت كاميليا النطر للأسفل
ولم ترد.

«مشر فادرة أصدق نفسي! حقيدة صافياز هتم بطلع كساة!»

حملة لم تكن دولت تمل من تكرارها في تلك الفترة، فلا تفهم
كاميليا ما وجه الغرابة في الأمر؟ ما الذي يجمع حفيد صافياز هانم أو
صافياز هانم نفسها من الكذب؟ كف عن الدفاع عن نفسها، إذ سم تكن
هي نفسها واعية بدوافعها لاختلاق حواديب وسيناريوهات لا علاقة لها
بواقع حياتها. كانت محتالة تقص على الناس فلا بد لها إذا من عقاب

خلال شهور قليلة لجأت إلى الكذب مصطوره في الصف السادس
الابتدائي، ومع نقاتها الأول بمادة الإنشاء، حين كتبت موضوع تعبير،
انحصر بداخلها كوشم، لأن المنوس رفض تصديق أنها كتبت مؤكّد أن
شقيقتها الكبرى كتبت لها، كان عاضياً لدرجة حافت معها أن تخبره بأنها
اسمة وحيدة بلا شقيقات أو أشقاء. ظلت واقفة في مقدمة الفصل تسمع
اتهامات الرجل وتهديداته، ولما أيقنت أنه لن يصدقها أبداً، اضطرت
لإحارته بإكيه أن أمها ساعدتها في كتابة الموضوع، وحرصت بعدها على
أن لا تشير شكوك مدرستها مره أخرى امتنعت عن الكتابة ما استطاعت

غير أن الكلمات المؤهودة احتلت محيبتها، بعدما دُفِن بداخلها،
ولم يعد لها من منفذ في سيناريوهات متحيّلة تقصها على (مسلاتها)، أو
موضوعات تعبير لن يصدق المدرس أنها لها.

«سكنونين فانة»، قال لها مدرس رسم لا تذكر اسمه، حين حكّت له
عن أشباح مخيلتها، فلم تجد في كلماته عرّة

قال: اوسمي مخاوفك.

فرسنت وردًا وأنهازًا وبساتين فاكهه، وكثمت المخوف عميقًا حتى
همحرت الألوان وكراسات الرسم، والحدائق من حديد إلى الكلمات،
الكلمات الحوالة التي ليس من عادتها أن تحفظ سرًا

بحمافة لا تتناول عنها، كانت ترعب في الاحتفاء حلف الكلمات،
في اختراع عوالم وحق حيوات وأقعة تتخفى وراءها وتموّه بها على
مخاوفها وأشباحها.

لم يخبرها أحد، وقف، أن للكلمات طريقته في الكشف عن
الأعماق، وأن لمخاوف ماهرة في الإعلان عن نفسها، دلهجوف راحة
وقوام يصعب التمويه عليهما.

كانت القراءة ملجأً أمّا لها، بين دفتي كتاب تشعر أنها في بينها،
حتى لأن تبكي نعاطف مع جاتسي العظيم وتتهم وبه يديري، بحلف
في دهنها بين رم بطل «بيرة في نادي اللياردو» وبين مؤلفه الإشكالي
وجه غاني يورقها مصير «أنا كرينين»، ونجد نفسها عالقة في طوفان
التماصيص الصغيرة المشغلة في ذهن السيدة دالوي، يصححها ويبيحها
أوسكار ماتسيرات بصل «الطلل لصفيح»

الشخصيات الفنية هي ما يغويها، لا مبتكرها من الكتاب يست
لديها أوهام رومانتيكية عن عاقرة الكتاب. على العكس، تؤمن تمامًا
أن بداخل كل منهم وحشًا تتعدى على ذاته والآخرين معظمهم قاتل
متسلسل، والإبداع وسيته للتور أو للإيغال في تدمير الذات.

بالنسبة لها لا صحبة أحمل من صحبة الشخصيات المنجبة
الكتاب، أي كتاب، فلك بوح يحسن كلماته وشخصياته إلى شاطئ نجاه
مؤقت، بقدهم من فيضن اللغو المحيط حتى ولو إلى بقو آخر، بكنه
لغو مُتَحَكِّم به ومعلق عليه بين دفتين. اعالم بحر صاخب لا يابسة في

أفقه، ولكتب أفلاّء تبخر فيه أو جزر تسعى إلى البقاء تحت الشمس
حيّاً ولاستسلام لإعواء الأعمار التام بالماء أحياناً.

لفترة قد تطول أو تقصر، عتطل بصحبة ست يشبه قدعة معلقة بين
السحب، ورجل يقف مستنداً إلى حائط في انتظار لحضة النهاية.

طرت في ساعة يدها فاكشفت أنها قصت الساعات، منذ استيقاظها،
بس عو لم «ناس العرب» وقصتها الحرجوة، وعليها لتحرك إن أراد
لمرور على منير في المكتب قبل موعدا على العدا مع صديقة لها.

حيث السحب منخفضة

إلى آدم كوستاكي.. ذكرى غيمة ظلت، ولم تف
بوعده بالمطر^٩

كاميليا محدي

رأى نفسه واقفاً في ساحة مكشوفة مستنداً إلى جدار، وفوق نايه
قريبة يتحفر قنّاص مصوناً النديّة إلى رأسه. شعور محبب سيطر عليه
وأعجبه ثمّ ما طر مسرّاً في وقته لوقت طويل لا القنّاص أطلق النار،
ولاً هو استعد عن مرمى القنّص.

كل شيء حوله بدا مهتراً النايّة، القنّص، أشجار الحور القريبة،
والحائط خلفه.

هو نفسه كان يترجح كأنه سائل في إناء مرر استولى عليه دوار
مصحوب برغبة في القمع مرر بمواقف أصعب في حياته، بل كانت حياته
سلسلة من المواقف لأصعب، ومع هذا أحس بالعناصر لم يختبره قبلاً،
ثم بدأ الدوار ينسحب رويداً.

راح تأثر لحظه اليومية. عادة ما ينبه بسرعة لبدء الغياب، البدرجي
تأثيرها، يشبه الأمر انقشاعاً بطيئاً لشبورة صباحية، أو ذوبان مادة صلبة
في ماء دافئ.

تغير موعدها من يوم لآخر «مجرد حفنة مهدئة» يقول الحارس
كمن يحاطب نفسه. يتفحص الذراع بحثًا عن الوريد ثم يفرغ محتويات
لمحقن فيه، قبل أن يغادر الغرفة سريعًا

كل مرة بُهَيَّأ له أنه شعر بحط سير الدواء وهو يسري في جسده جالبًا
معه تنميلًا شديدًا. تثقل ردود أفعاله حتى تكاد تعدم، يغدو غير قادر
على رفع يده يعلق جفناه رغما عنه، ويدف رأسه كدوامه، ثم تهال
الهلاوس عليه لا بد من أنها هلاوس لأنه يتذكرها بالكاد حين ينتهي
مفعول المهدئ، وما يستعيد منها لا علاقه له - في الغالب - بحياته أو
ماضيه.

تحمله صلالاته إلى أراضي أخرى. يرى نفسه فوق قمة جبل والسحاب
يمر بحواره بحيث يمكنه الإمساك به لو أراد، توره غدة أشجارها على
وشك التحمد من شدة البرد، وفي مدايتها كوخ صغير - يعطيه من
الخارج نانات متسقة بزهور أرجوانة وحمراء - ويخرج منه رجل
وامرأة متشعلان بنفسهما عما حولهما. كما يجد نفسه مرارًا وقد هرب
من مكان حتجاره، وركض نحو الحجاب الآخر من النل إلى أن لم يعد
قادرًا على الحركة خطوة إضافية، فيقف مُشرفًا على الصحراء الممتدة
بالأسفل، مُحيل له أنه يلمح بسان ريبون، على رأسه مقعد بحسن فوفه
رجل وامرأة، وأمامهما بئر تمثّل كحد فاصل بين حصرة أشجار الريفون
البهتة وأصفر الرمال اللانهائية، ثم يتلاشى الرجل والمرأة والبستن
والشُر، ويلحق به الحراس ويقتادونه مجددًا إلى محبسه، تدهشه العادية
التي يعاملونه بها كأنه لم يمر منهم، لكنه سرعان ما يتسلى هذا ويستسلم
لوهم جديد.

يدرس وجهه في لومسادة، ويعمض عييه، محاولًا فصل وقائع حياته
الحقيقية عن صلالاته، فلا يقلح.

في الصالة شه الحاوية، كن أحد الحراس يصرخ، مادياً زميلاً له
 ولكنه رقيقة خشية. يتصرفون كأنه غير موجود، مع أنه موقن من متابعتهم
 لأخف حركاته، بحث مراقب، عن «كاميرا» مراقبة في غرفته، فلم يجد.
 حمس أنهم يستخدمون نوعاً متقدماً في الصباح يتركون له بصحة أرفة
 حمز وقطعة جس، ووقت العداء يصنعون على الطاولة الجرداء طبق فول
 أو عدس أو في أحسن الأحوال قطعة لحم يابس مع أرز وفاصوليا تسحق
 في دهون كثيفة.

عرفته لا تغلق من الداخل ترانس، وهم لا يعلقونها عليه بالمفتاح
 من الخارج، بإمكانه فتحها وقتما يشاء للتجول في البيت أو الخروج
 لمحيطة ذات الأسوار سبعة الأرتفع وانوابه الحديدية، المعلقة دوماً
 بإحكام، يحرسها كلد لا يكفان عن الشاح طوال الليل، يحاوبهما عواء
 ينبعث من بعيد قبصل صمغاً وما عدا هذا، فالصمت رشح معظم
 الوقت

من زفدة عرفته، حيث اعتاد الوقوف محققاً في الفراغ لحارجي،
 يمكنه رؤية الحراس الستة قطعوا شجرتي لور ونظفوا الأرض، ثم
 نصبوا حيمة كبيرة، قصوا النهر بكامله دخلها، يثرثرون بأصوات
 مرعجة، وهم يلعبون الورق. أعدو شايًا فوق نار، أشعلوه في حطب،
 جمعوه من الحديقة، ووصلوا حكيهم، من غير أن يظفروا بحوه، أو
 سبهوا لمراقبته إياهم. يستمزه استرخاؤهم وتكاسلهم وتصرفهم كأنهم
 لا يعرفون من هو، ولا يذكرون خطورة احتجازهم له.

يحاول تحليل مستقبله القريب، نوقع أين سيكون خلال عام مثلاً.
 سيذفن في حفرة بالصحرء الشاسعة أسفل التل؟ أم أب هناك بالفعل
 سراً - تجاور سندن ريتور - سئل في أعماقها، حيث الظلمة
 والبرودة؟ تستحضر تخيلاته رجلاً وامرأة جالسين على مقعد قريباً
 من أنبثر المفترضة، عافلين عن أن قاع البشر يحتص بجثة يطرد الفكرة

المزعجة من رأسه في العالب سطل هنا «ضيق» على من لا يعرفهم
ويتظاهرون بأنهم يجهلون هويته.

يشعل نفسه بتحميل سياريوهات عيفة محتملة؛ لأن هذا وميلته
لوجده للمهرب من ذكرى صارت بمثابة الإطار لحبته الوعية. ذكرى
يد مربعة تبحث - بلا طائل عن قشة تتعوق بها

وحدها نلت أريد لا يساهها، وحدها لا يقدر «الدواء لمهدي» على
تبيد ذكرها، بل يشحذها ويقويه

يد القائد المزعجة وهي تنشئ بالكرسي في محاولة للصعود، فيما
الحسد يرفد بالأسفل مصراً في دمانه، وطلقات الرصاص نهمل بلا
توقف لم يمد له يد العون. لم يمد أي مهم. الرفاق اشعروا بأحراحه
هو سادماً، بينما ترك القائد مكثلاً بيثيه ورصاصات حوت حسده
إلى مصفاة.

رأى المؤامرة تقترب. شعر بحيوصها وهي تحاك حول القائد. لم
يحدده، وحتى لو فعل، ما كان الرجل سيصعب، كنت الكلمات ستطير
حوله، كذرات عبار. فيما يحلق هو متشياً، في لمرايا العديدة التي
تكسو حدران عرته المفصلة في الفص

كان بجواره حين سقط. متحته السترة المصادة للرصاص حياة
أخرى، في حين رفض القائد إبداء سترته، مهو، من أي خطر محتمل،
في ظل عشق الحمائم له.

حماء لرفاق هو، أحاطوا به وسحوه إلى الخارج. أصبح أملهم
الوحيد. في لحظة واحدة، بات القائد جزءاً من ماضي يارب، وعيناً عليهم
جميعاً التحلص منه. في ركضهم من أجل السجاة.

خلال آدائه المس حلقاً للقائد، رأى عيني دكرته، أيد المتشقة

حياة تنقلت إلى الأبد. مجدها محمورًا نشوة الحدث، وظنها ستكف
عن مخايلته.

يومذاك، صمم على ارتداء خُلة مدنية، أحد قرارًا - بيه وبين نفسه
- بهجر الزي الرسمي بلا عودة أو ندم هاحس ما وسوس له بأن الزي
المُرَّين بالنياشين حالب للموب، بأنه وحده ما نادى لفتنة وأعوهم.

خضعه، لكن لم يتزع بقياه من داخله ولم يرعب في ذلك من وجهة
نظره، لم يكن مجرد ردء، أو علامة على نمط حياة معينة. كان الحية
نفسه، وجهه ووشم البار على جسده. عهد لا ينبغي حيائته، وتكليف
لا تنصل عنه

«لم يحنه حين تركه لمصيره، ونحونا بحياتنا!»

كأن يردد بصوت مجروح، ما أن يبدأ معقول حقيقة في السريان،
مررًا مسكه هو والرفاق بأن اقتد، في ذلك للحظة، كأن رجلًا ميتًا
حتى لو لم تعدده أرواح بعد. وبالفعل، بالنسبة لهم، مات اقتد قسها
سنوات، حين تخلص عن الحذر، وعرف في مراهه الخاصة

في سنواته الأولى خلفًا لقائد، عاهد نفسه على ألا يكونه، ألا يصع
أي شيء يقربه منه. بالغ في محو كل ما يُذكر به

محر لمرايا لكنها لم تهجره رأى وجهه منعكسًا في كل شيء، في
الصور بالشارع، في حوّه حاشيته، في الجرائد وفي العيون لحائفة في
مواجهته كل الأشياء أصبحت مراه تعكس صورته.



راقداً في فراشه، يتخيل مسار سريان الدواء في جسده، فيبدأ علمه
في الاهتزاز والتأرجح، توأحه شاشة تليفزيون صورتها نالعة التشوش،
وينبعث منها وشيش مرعج، تعيده إلى انقطاع لث التليفزيوني يوم

الاعتقال، لطالما أعاد مشاهدة مشهد القتل. قبل انقطاع أبث، رأت الملايين القائد غارقاً في دمه، ويده الياثية تحاول التشبث بنقشه الحياة دوماً طائلاً، ومع هذا حس الجميع أنفاسهم غير قادرين على تصديق أن السموت بإمكانه قطعه كغيره من الفايين

خيم صمت ثقيل مذر بالأسوأ خلت لطرق، وهدر الناس المقاهي في غصون دفائق كانت العربت تكاد تطير في الشوارع تسابق ركابها من أحسن العودة لبيوتهم، وإغلاق أبوابها عليهم.

شُدَّت الحراسه على المنشآت والمؤسسات الحكومية صباط قوات خاصة مصلاين موداء أشهروا الكلاسيكوت في كل مكان، قنّاسة تمرکزوا في أماكن مختارة بعناية، احلب المدرعات المصادين ومداخل المدن الكبرى.

ثم بدأت التمهيرات. بعد هدوء مميت دام يومين، في ليوم الثالث بعد الاعتقال، بُدِئت العمدة الأولى عربة مصححة انفجرت في ميدان رئيسي بالعاصمة عشرات القتلى وأصعافهم من لمصين. ثم بكر يوم دون تفجير في مكان م. هوجمت أقسام لشرطة ومديريات الأمن، حُرِّقت مقار حكومية، وكن لا بد من مواجهات مع المتمردين في جنوب البلاد.

كان الرفق على أعصابهم، خائفين من أن تخرج الأمور عن السيطرة، لكن رباطة حاشه كانت معدية. من تعدلوا معه عن قرب، هي تلك المرحلة، كانوا شبه موعين من أنه يتشي أكثر كلما ازدادت الفوضى، كأنه بصدد بعة تصاعف إغراؤها كلما تعقدت كان يعد المسرح لإطلاقته الأولى من موقعه الحديد، موقع الميعد

يدفس وجهه في الوساده، فيرى نفسه يلقي حطة فرق أنقاض مديرية أمن سُويت بالارض في انصهار أخير، يتحدث عن فرض قانون الطوارئ،

ويقسم أن يثار ممن اعتالوا القائد، وهددوا استقرار البلد وأمه يصبر
 معتقلات امتلات بالمساجين، ومتمردين أعدموا رميًا بالرصاص في
 الميدان العمة، وأحبر أهلهم على دفع ثمن اندخيرة التي قتلت أثناءهم
 يستدعي تنقله بين المدارس ورياض الأطفال كي يتأكد نفسه من أن
 التدريب على الرماية صار مادة دراسية، تُشترط النجاح فيها لتفوق من
 أحل لتخرج، لتحفيز أحيال من القناعة ومحترفي الرماية. أجيال مهنتها
 المراقبة والانتظار استعدادًا للفنص، ويرى أفرادها العالم عبر منظار
 نذوقهم، ثمة وسيط يلون رؤيتهم لما حولهم ويرسم ظلالها

يستعيد خطباً أسوعه حرص على لتطرق فيها لكافة الشؤون الحياتية
 للناس. كان يحلوه بحكي جواب من لمعارك التي حاضها، حواديث
 وطُرف عن أيام حصار عرفت في حرب بعيدة، أو تبته في الصحراء بعد
 نحاته وحده ذات مهمة حطرة تفصل يمررها بين شايا كلامه فيبدو كمن
 يحكي لأصدقاء قدامى عما حدث في عيابه عنهم، لكن كان لها معمول
 السحر ضد معارصيه كان كاسم يقول، «من هؤلاء؟ أين كانوا وقت كما
 نقامر بعيننا من أحل البلاد؟ في الحنادق غرق في لطلام بلا همسة قد
 تدن الأعداء عليه، زحفنا في الصحراء، ودفنا أشلاء رفاق، والآن يأتي
 هؤلاء الحونة والمأجورون كي يوطوا بكلمات لا يفقهون معناها لو
 أتحت لهم نصف فرصة لنحولوا إلى غوعاء صارخين ومثيري شغب
 ينشرون الفوضى والخراب».

وقدذاك لم يحظر بله أن «الخونة والمأجورين» لن يكون لهم علاقة
 نهائية. وأن نارًا، اشتعلت قمل سوات، وأنت على القائد، ستواصل
 التهام آخرين.

في ساعات الفراغ الممتلئة، كان يستعمل خلو حسده من المادة المهدئة في محاولة تخيل ما يحدث بالخارج هل استتب الأمر برفاقه، رفاقه السابقين وأعدائه الحاليين بالأحرى؟ أم أن المحرفة مشمرة، والبيت أعلى التل في انتظار نزيل جديد قريباً؟

لكن، لا من العناء لم تشمل أكثر من ثعلب محتك في مكان واحد حتى وإن كنت ثعالب فقدت سطوتها مؤكداً أن هناك سوطاً أخرى شبيهة، أو سحوت سرية لأصحاب المقام الرابع

دات طهيرة حارة حدث أمر ظهه يجيب على تساؤلاته وصلت عربة تحمل طاقم بصوير تليفزيوني محرراً بلحية مشعثة وشعر طويل وبطارة شمسية تأكل نصف وجهه، ومصوراً عصياً بوجه مشحج التعجب

اللائد يتصرفان بحرفية عالية وسدوان كعجيليين سريرين أكثر من كونهما محرراً ومصوراً. المخرج بحديثاً يتعامل بسلطه واصحة وفي عينيه نظرة هارئة على الدوام.

أدخل الحراس «صفهم» إلى عرفة بها دولاب مليء بملاسل فاخرة، حددوا به أي حلة سلس، واختاروا أدق الإكسسوارات المصحبة من مسيل حريري وربطة عنق نازسية كانوا قد حلقوا له دقه وهدبوا شعر رأسه في الصباح دون إحاراه بالسبب احتشد الماكيبير، اندي طهر فجاء بعد أن صل بعربة انثليمريون لآخر لحظة، في إحصاء آثار عدم النوم والبهالات لسوداء تحت عيني «المتنقذ». يكاد الأخير يقسم أنه لمح ارتدشة يد الماكيبير وهي تقترب من وجهه، كان الرجل يتهرب من النظر في عينيه وأصابعه تتحرك سردد وارتباك على الشرة المداكة.

أعطاه قائد الحرس خطبة جاهرة، وطلب منه مراعتها، والتدريب على إلقائها سوانه السابغة جهرته للمهمة جيداً. يعرف متى يعلو صوته محتثاً مهدداً، ومتى يرتحل تعليقاً شارحاً لعقرته السابقه بعمية حاذقة

دقق المخرج كثيرًا في الأجزاء المترجلة، أو شبه المترجلة لأنها مكتوبة أيضًا، إذ ليس مسموحًا له بالخروج عن النص. عليه فقط إقناع مشاهديه بأنه يرتجل، بأنه ذاته القديمة. «المُنقذ» الذي عرفوه وحافوا منه وكان سنوات المتحكم في مصائرهم، ومحدد درجة اضطمة في كوابيسهم.

أصبح حضور طاقم التصوير التليفزيوني مألوفًا. مرة شهرًا. يصورون حلاليها أربع حُطَب، وأحيانًا يحبثون في غير مواعيدهم، منعجلين مرسكين، لتسجين كلمه سريعة. فيفهم أن حدثًا طارئًا قد ستجد يحهد عقله في محاولة استنتاج ماهية هذا الحدث دون طائش، فحوى الحُطَب يحصره بأن ثمة صُرابًا هنالك بالخارج، وأن رفقه القدامى ما راوا في حاجة إليه، أو للدقة ما رآلو في حاجة لخبير امته لمتوعد هي الحُطَب التليفزيونية المُسجلة يسأله متى سيتحول إلى «كارت» محرووف في أعينهم؟

مع الوقت، باتت اضطره الهارثة في عين المخرج تصايقه، لا بهم مررها، ولا يعرف إن كنت موجهة نحوه أم قناعًا لا غنى لمرحل عنه، لكنها كثفت شعوره بمأساوية وضعه، بأنه صار ممثلًا هوليًا أو دمية للا قدرة على اختيار كلماتها الخاصة، أو تحديد ما يد حل حسدها من طعام أو دواء.

تأكد هذا الشعور حين فقدت نصوص الحُطَب لانساق، وأصحت «إسكنشات» يخاصمها المنطق. بدأ يتلحج غير واثق مما يقوه، ولا بأي برة عليه النطق به. توقف مرات، غير عابئ بعصب المخرج ولا واحتجاجاته، إلا أن ظهور الحراس، بسادقهم ونظراتهم المهددة، كان يدفعه لاستكمال التصوير.

تعاود عربة التليفزيون، فيلحًا إلى عرفته. يحاول تاسي كل ما يخص الحُطَب المشاقصة، فالتفكير فيها لن يقوده إلى شيء. لا علامات ترشده

إلى ما يجري في العالم خارج هذا البيت، ولا إلى سبب احتجاره فيه،
نات حتى غير متأكد من هوية من احتاروا له هذه الهبة.

لا دليل على ما صيحه، سوى ارتعاشة يد الماكير، وهي تقترب من
وجهه. ولا ضمانه لحاصره، سوى بانغماسه في أداء دور لا يدرك
أبعاده. حرص لاحقاً على نيل رضا المخترج، أو على الأقل تجنب
غضبه. تجاهل نظرة السحرة في عييه، ولاحظ أن الرجل كألم يمنح
نفسه بالكاد من التفوه بما قد يريح بعضاً من الصواب العالق في الأحواء

«يلا يا بطل!» عبدة يكررها أتمخرج، لحنه على التجويد. أسرة
المعمقة بالهرل، كانت تعد مفرقة «بطل» عن مدين اقتار وساحات
المعرك، ونقي بها في ملاعب اعطوفة، فلا يسع «المُنقذ» إلا رؤية نفسه
صفلاً مربب أوجه، يلعب كرة القدم مع أصدقاء صفولته، ويتصر هتافات
لنشجع وجهه المترب القديم ذلك يكون آخر ما يراه قبل نومه كل
ليلة، مصحوناً بعين يغمرهما الاستهراء، وبد مداة تستमित لتشبه
نأي شيء.

وكما أشرق طامع التليفزيون فجأة في أفق حياته، غزب عنها مجدداً
دور تحذير لم يخبره أحد أن تلك كانت آخر مهامهم في مواعدهم
الشهري المقترض، استقظ من نومه مكرراً، جهر بعينه بفسيا لحمود
المصور، وتكاسل المخرج الهاري، وتوتر الماكير وهو يتعامل مع
بشرته. مرت الساعات، وهو في عرفته لا صوت ينبى بوصول عربة
التبفريون، لا أو مر له بارتداء برة محترة بعاية، ولا أوراق مطلوب منه
التدرب على إلقائها. فقط أحضر له أحد الحرس، في الصباح، رغيفين
وصصة وشرائح جن رومي وثمرة طماطم، ثم شغل الجميع عنه،
سجستهم المعتدة على كليم صوفي في الخيمة بالحديقة، يلعبون الورق
ويدخنون السجائر بشراهة.

وقت العداء، رافدًا في فراشه، بدأ يتألم مع فكرة أنه سيقتضي لبوم وحده. لتهم طبق العاصولياء الغارقة في الدهون، دون أن يعي طبيعة ما يأكله بالضبط، وأجهز بعدها على طبق الأرز وقصعة اللحم، ثم عاود لرقاد نام وأفاق مع حلول المساء لم يسأل قط عن سبب غياب المخرج وفريقه، لأنه لو سأل بما أهم أحد بالرد عليه. لو حدث وحاطب أحد أفراد الحراسة لا ينظر إليه ولا يجيبه، يتحاوزه كأنه هواء لا يوجهون إليه أي كلام، يتكلمون عنه بضمير لعائب، ويكررون الإشارة إليه بـ «المُنْقِذ» كأن المقلب يسلمهم. لم يتخيل من قبل أنه سيفقد المخرج رغم معاملته له كطفل لبيد، ونظرتة إليه كمن يرقب فأراً في مصيدة، كان لو حيد لذي يوجه له كدمات مباشرة، حتى لو كانت أوامر وتعليمات

في اليوم التالي، تلقى تعليمات مختلفة أو للدقة تنفذها حراسه، ولم يكتفوا أنفسهم غناء إخباره بها. اقتادوه عبر الحديقة بأشجارها المتشابكة، ساروا به لمسافة غير عاشرين بالأعصان وهي تحذش وجوههم وأذرعهم أو تعرقل سرعتهم كانوا يسحبونه كما لو كان حواً لا عليهم حره خفهم، وكى يقلل من مهانة قبضة أيديهم عليه، حاول تسريع حركته، فأبى مقاومة مستكرس حالته كسجين، كحيوان يقاد إلى المسلخ.

امتدت الأشجار لمساحة لم يكن يتخيلها، اشعل بالنظر للعشب المثلل قليلاً. من بين المسافات الضيقة بين قمم الأشجار، استك ضوء لهار دخل العابة المصفرة مُسْتَتًى ومُشْرِباً لعلالة قاتمة من ظلال الأوراق والأغصان.

وصلوا أخيراً إلى نهاية الأشجار، مروا من باب، يتوسط سوراً بالعمود الارتفاع، وأعلقوه خلفهم، حرحوا إلى ضوء لهار في مساحة واسعة

مسورة، أعلى السور أربعة أبراج مراقبة في كل منها قاص في وضع الاستعداد.

التقطت عيناه الخبيران أدق تفاصيل المكان وضعية كل قاص من الأربعة، راوية التصوير المثالية، ومسحة الترقب المستقيمة على الساحة كغيمة منثرة بمطر حزين.

شعر بالأسف لأنه غير قادر على التقاط تعبيرات وجوه القنصة من هذه المسافة. فوهاب السائق موجهة إلى حصده والحراس انتعدوا عنه وعابوا مرة أخرى حلف الباب المؤدي إلى العانة المصعرة

في ركن من أركان الساحة المستطيلة، وقف عادية شخص ينتظر في محطة أتوبيس. ثمة ترقب وملل وفاد صبر، لكن لا وجود بداخله للخوف أو الرحاء. يمني ألا تخونه يده، عند أسفاية، بارتعاش ستوسل ويائس، في محاولتها للقض على تقايا حياة هاريد.

مرت الدقائق ثقيمة. اشغل تخمين من أي اتجاه سأتيه الطلقة الأولى، وتساءل - في سره - إن كانت روحه ستجتر على دفع ثمن ذخيرة لنادق الأربع. في طلعة أولى أمطر انقاصه لساحة بطلقات متتالية باغته الصوب الأشبه بقذائف صاروخية لا معنى للعب بأعضائه على هذا النحو، إلا إذا كان الحدث بكامله يُصوّر لإمتاع آخريين، لم يعد واثقاً أنهم رفاقه السابقون استماب لندماسك في إطلالته الأخيرة على العالم أعمض عيبه، وعموه مشهد فديم، كأنه من حياة أخرى، ويحضر شخصاً غيره. في عشرينياته، وخلال إجازة من وحدته العسكرية، يجلس في مقهى بطل على النهر. السماء غائمة، الجو بارد ومياه النهر رمادية. على الشاطئ الآخر «دهيات» بأنوان باهية تكسر المياه على هيكلها من أسفل من حلقها وفي المسافات بينها أشجار نخيل وفيكس وبضع شجرات مور مثقلة شعارها، ومرسى مطلي بأحضر دكن. قارب

بإطار أحمر حائل، مرفوع فوق رصيف نهري، وحلفه الخلات وأشجار
الموز، يبدو كتفصيلة ديكور أكثر منه قارب في طور التجديد والإصلاح
الكوري الحديدي الواض بين صمتي النهر يعبره قطار سريع، صوته
كظلمة مدوية، وسارية إسعاف ترد عليه، فتشوش عليها أنواق سيارات
وصبح مكتوم لمحرقات قوارب تمر من وقت لآخر ومن اطاولات
المنجورة يأتي قرع كؤوس وأدوات مائدة وثرثرات متداخلة. على
الصبة، التي يقع فيها المفهى، كن ثمة عراب يُحلق فوق مراكب راسية
يهددها الماء على مهل.

يعرف أن الرصاصة التي ستقتله لن يسمع صوتها، لكنه سم يتحيل قط
أن يكون صوت قرع كؤوس رحاحية وأدوات مائدة وثرثرات بلا معنى،
هو ما ساحتل ذهنه، بينما ستطر مصيره منتصفاً بالحائط، قبل أن يتهدوى
مرتمياً على الأرض.

لم ينته إلى الطيور المزعجة، وهي تهجر أعشاشها على لأشجار
القرية، مكوبة سرّاً مرتكاً هائجاً، لا يعرف إلى أين يفر، ولا يَمِّم
بالصبطا لكن بينب تبتلعه الصلمة تراءى له جناح عراب يرفرفان فوق
مراكب راسية على ضفة نهر

أميديا.. أو سماء بلون الفيروز

على صديق شبه مهجور بأريزونا، اتهارت أميديا أمام شجيرات دوبي
تزيير ممراً جانباً يقود إلى بيت محاط بسنن شامع.

كانت قد طلعت من روحها إيقاف السيارة، وسبقه ركضاً نحو الممر
المؤطر بالدقلى من جهته. حين لحق بها كنت واقفة بلا حراك ونظرها
مسمرة بزهور الدقلى. مدت يدها فحسست بتلابها الناعمة، وهي لا
تكاد ترى سوى لونها القرملي المعش، غير أنه لم يكن معشياً لأميديا
المليصة بالشجيرات كأنما ترغف في الاتحاد بها، على العكس. داخت
وصاق صدرها حد الاختناق. خيل إليها أن رتبها على وشك الاحترق،
واربمت على الأرض - في وضع جنيني - تتعجب بجوار الشجرة، دون
أن يفهم زوجها ما سبب لها كل هذا الحزن.

حملها إلى السيارة، هدهدها كطفلة ومسح دموعها، وكعادتها
رفضت أن تروح بسبب انهيارها كانت مإد تقبى من إحدى نوبات
هلوعها، حتى تنصرف كأنها لم تحدث، نلتعها وتعاود الاشعل بها صيل
حياتها اليومية والانغماس في لحظتها الحاضرة

بالسنة بها، الماضي لم يحدث، والمستقبل عدلم مواز لا حماسة
لترقبه، أم الحاصر فعالهمها ألوجيد، ملجأها وملادها الماحي لذكريات

تسكنها، وتطفو على سطح واقعها فقط حين تبصر محققاً يردها إلى كل ما تهرب منه.

هكذا سيضيف روحها الدفلى إلى قائمة طويلة من مسيات الابهار، دون أن يفهم لماذا لرهرة رقيقة وإن كانت سامة - أو دون يعينه أو لقطعة أثاث هذا التأثير المهل على زوجته المتأرجحة دوماً بين كونها بسيطة وتلقائية أو لو غدرتْ بعجز عن فهمه.

في السنوات التالية، ستبكي آميديا كلما رأت الدفلى. الشجرة المسممة كانت حراسة لها يوم احتشأت داخل حميله من شعيراتهم، حدثت في أرهاها، ركزت فيها كأني اعالم بكامله، ثم انكمشت على نفسها فوق التراب، في وضع حبيبي تتوقب وقع خطوات محتمه لم يخبرها أحد قبل ذلك ليوم أن الدفلى، بأوراقها وزهورها، شديدة السمية لو علمت بهذا، لربما التهمت ما تقدر عليه منها، بعد أن هدها التعب وماء جسدها بجزو حه وتقيحاته.

أيام من السير المتواصل وانميت في العراء كانت قد أوصلتها إلى حافة لحيى جسدها ارتفعت حرارته واستسهم للارتعاش، وعقدت لم يعد قادراً على العمل كنت الأشياء من حولها تتلاشى، والصاب ينكاثف أمام عينيها بدون مستعد من رهور الدفلى

في تلك اللحظة كانت تحم بسماء فيروزية، وماعر تمرح فوق التلال والمرتفعات، وتبوس جلبة تنفذ نشاط فائق في فضاء عيوبتها المؤقتة كان ثمة حقول حصة وبساتين حوح مزهرة وأشجار دُلب ودردار حمم لا وعيها اللحظة السابقة على المأساة وتوقف عندها

كنت تلعب حارج بيتهم، المشيد بصخور وأحجار مفتلعة من الحبل القريب، والراقد في سفحه، حين تعالى الصراح في ساحة القرية، تعثرت في دحاحات أمها وهي بركض إلى الداخل، اختشأت في العرفة

التي تنقسمها مع شقيقاتها الأكبر مها، في حين خرج كل من في البيت لاستقبال سبب الهلع والصراخ السائدين في الخارج.

عندما تأخروا، تسللت إلى السطح، وراحت تراقب خلسة الهرح السائد مسلحون متجهون جميعاً الأسلحة من بيوت انقرية، وفتادوا الرحال إلى الساحة. أوقفوهم في صف طويل وأطلقوا النار، ثم أشعروا النيران في الجثث بعد أن فتشوا الملابس واستولوا على ما فيها من نقود.

صراح النساء، وهن يركضن إلى البيوت لإغلاقها عليهن هن وأطفالهن، كان مرعاً. بدا لأذنيها أشبه بعواء ذئاب حريجة، رعم سنواتها القليلة كتب تميز العواء جيداً؛ إذ لطالما حرمها من لنوم حين كان يتعالى من شعاب الجبل.

استحال فضء القرية دخاناً كثيفاً، وطفعت رائحة شواء اللحم الشري على ما عداها. عينا أميديا اللتان رأتا كل شيء، من مخبئها فوق السطح، لم تعودا راغبتين في الرؤية، وهذا ما فيها، وتمتأ العرق في الظلام

على التلال انقرية، كانت التوس الجبلية واندعر اسري تواصل لعبها وتقافرها، وحلق كروان مغرداً بصوت مناعم، ومتطولاً على الدخان الفحامي المتصاعد.

كان مايو قد أعلن عن حصوره بطقس ربيعي معتدل، وكانت سائين لحوح والكمشوى والرفوق مثقلة بشمار اعتادت الطيور أن تنقره، ومن وقت لآخر قد يسبح طائر ما في التقاط ثمرة منها لمحابه والطيران بها قبل الهبوط في بقعة هادئة ليقتات على حزاء منها بقرت سريرة، يشبع بعدها ويعاود التحليق.

في ذلك اليوم المحفور في ذاكرة أميديا بأدق تفاصيله، لم تكن هناك بقع هادئة في لحوار، ومستدهش الصغيرة بعد سنوات كلما استعادت أحده، وهي تسأل نفسها. كيف تمكنت الطيور من الطيران محترقة

اندخان الكثيف؟ غربان عديدة ارتفع بعينها، وحلقت السور والعقبان،
في مسارات دائرية، كأن رائحة الموت استدعتها.

بين برهة وأخرى، كان يتعالى صرخ سرعان ما يُكتم في أوله
أو منتصفه على مقربة من أميديا، الراقدة على بطنها لا تزاو وعيها
ملتصقتان بمشهد الساحة المغيبة بالدحان، حط هدهد يحمل بمخالبه
حويخة ناصجة تسيل العصارة منها، تركب فوق السطح ونمش ناجه، ثم
حنق مبتعداً من جديد.

رغم رعبها وارتعاشها، التهمت الصغيرة الخوخة وهي ممثلة للطائر
الملكي. بعدها بقليل، سمعت صرخ أمها وشقيقاتها للأسفل. اقتحم
المسلحون عليهم البيت صلت أميديا من أجل بجتهن قبل أن تمقد
الوغي.

كان الصمت تاماً حين أفاق من تلقاء نفسها كانت العيوم بالعة
لكنه والهواء ثقيلًا كريح الرائحة شعرت بحرارة لاسعة وسهب إلى
بيران لتتهم البيت من الداخل، صوب طقسقتها تصعد فجأة مشوّش
على الصمت. جرت إلى الجانب الآخر من السطح، حث شجرة التوت
الملاصقة للبيت، تشئت بالعصن القريب وقفزت نحو الشجرة هبطتها،
عاكسة بذلت طقسها ليومي المحجب، حيث عتادت في ما مضى تسلق
الشجرة للصعود عندها إلى السطح متحاذية تحذيرات أمها من خطورة
هذا بشكل لا واع ربطت أميديا في ذهابها بين الكوارث والتحلي عن
لطقوس اليوم. وحتى آخر يوم في حياتها، عاشت عبدة لعاداتها
اليومية، لا تحرر على الإخلال بها أو تغييرها.

قد يتحسد لرعب في التخلي القسري عن طقس يومي، أو في
هستيريا دحاح يجري هرباً من خطر يجهل أبعاده وقد يُحتصر الجمال
في هدهد، نراه ثمرة شهية لصغيرة مرتعة ستظل ممثلة لهذا الطائر

النبيل طوال حياتها، واستعبره - دوماً - من أحب الكائنات إلى قلبها
رغم مسافة هذا للعقل والمطق، عاشت مؤمنة بأن الهدهد ترك لها
الحوكة عن قصد كإيماءة أحوه ودعم

نحدثت لنوتة ساقها في طريق هبوطها مستندة إلى جذع لشجرة
المعمرة، أنصرت ألسنة الذهب تتصاعد من فواقد ابنت كانت اليران
قد أتت على الدب الخشبي بالكامل، كشعة عن الخراب الذي سببه
بالداخل. دارت آميديا حول المبنى كالمحونة، بحث عن ثغره تدخل
مها حتى تلك اللحظة، لم تكن مدركة لما حدث بالقبض. من دفعة
حلقية مواريه، لمحت جثث أمها وشقيقاتها راقدة على الأرض في بركة
من الدم كنت اليران قد طالت حثه شقيقته الكسرى، وخلال دقائق
تحولت الشقيقة المغرمة بالصحك والعباء إلى قطعة من جحيم

لا تعرف آميديا كيف استطاعت الوقوف وعيها مثبتان على النار
وهي تتغذى على جثث أحسها كانت كاجنومة معن طيسياً، ضلت محدقة
في النار المهترئة المترافضة حتى لم يعد هناك غيرها ربما يكون شعور
الانحطاف هذا هو ما منعها من تنفيذ فكرتها المجنونة بالقفز عر لبافة
للالتحاق بأهلها في الداخل.

كان السعال الشديد وواحد الاختناق هما ما أخرجاها من احطاطها
الدخان لكثيف ملأ صدرها، بحيث لم تعد قادرة على انتعش أحد
جسدها الصغير يرتج مع كل سيلة ودمعت عيناها، فلم تدر بنفسها إلا
وهي تركض هاربة من قرية تحولت إلى مقبرة لسكها

كانت وحيدة في عالم ميت، ترمي على الأرض كلما عليها الإلهك،
قل أن تعاود السير. تورمت قدمها، واحمرت عيناها والتهتتا، وغرق
وجهها في السموع والمحاط تنظر إلى السماء، فتحتها صفحة رقاء

مُطَرَّزة بالعبوم، وإلى الحقول للانهائية على طول لطريق، فيدهشها أن
لأشجار والساتين لم يبعثها الحريق هي الأخرى.

خطر لها أن تعود إلى قريتها ترى إن كان ثمة ناحون آخرون، لكن
قلبيها انقبض لمجرد التفكير في هذا الاحمال، من يصمن لها أن القتلة
لن يعودوا لئسب أو لآخر! ثم إنها كانت قد قطعت مسافة كبيرة في طريق
الهرب.

في الليل، انكمشت على نفسها على رأس ستان برقوق بعد أن
ملأت معدتها بثماره تورت بين نضع شجيرات، وأغمص عينيها
مستسلمة لئوم قلب أيقظها منه صباح يتعالى وويذ، فتحنت إلى شجرة
قرية وتسقنها قضت ليلتها فوقها تقاوم لعاس والسقوط وتبهل كي
لا تتبه الكلاب الضالة إليها.

مع اسلاح الحجر واصلت سيرها، لم تقاس قرية واحدة على امتداد
الطريق، فقط حقول وساتين لا نهائية. أكتت مما تصادفه من ثمار،
وشرت من ماء اجداول، ومع هذا رافقها جوع لا سبيل للإشبعه،
وعطش ترك فمها جاف وحلقها ملتها

التقت بهرين آخرين، سارت في ركابهم في عيونهم أبصرت هلعا
داته حماع متافر من سريان وآشوريين وكلدان وأرمس ويوبانيين. من
امتح باب الجحيم في وحوهم، لم يكلم أحدهم الآخر. لم يتبهوا إلى
أنها تخلعت عنهم في منتصف الطريق. لم تعد قدرة على مواصلة السير،
رقدت لمدة لا تعلم مدتها، ثم قامت متحاملة على نفسها على أمل أن
تلتقي بناجين آخرين. من بعد سمحت خميلة من شجيرات الدفلي،
بوصولها إليها، كانت قد فقدت كل قدرة على المقاومة. كانت جروحها
منعرجة، ورؤيتها زائغة، وكل شيء حولها لا يكف عن اللف ولا هزاز.
حدثت في الزهور القرمزية حتى استحالت سوداء عرقت في الظلام

واللاشيء، وحين أفاقت وجدت امرأة حالسة بجوارها، تمسح وجهها بقماشة مبللة وترش أمام أنفها عطرًا رائحته نفاذة، ذكر أميديا بالعطور التي يعطرون بها الموتى بعد تغسيلهم.

الرائحة نفسها التي عشت غرفة حدها لأمرها بعد خروج جنمائه منها إلى الكنيسة لأبام طلت الرائحة عالققة في المكان حتى نبت في دهن الصغيره رائحة الموت وأنفاسه. لكنها لم تكن ميتة في ذلك المكان المحاط بالدفلى من كل جانب، كأنه محاط جهازه أحدهم لها حصيصًا كنت منهكة متألمة، تر الدماء من الجروح المتفرحة في ساقها وذراعها

نقلتها امرأة، التي لم تكن سوى راهبة. إلى اندير القريب طست حروجه، واهتمت بها حتى تعافت فهمت أميديا من دردشة الراهبات انمسألة أن ما جرى في هرينها، تكرر في قرى أخرى عديدة سمعت شذرات من حكايات مرعبة عن قتلى لم يجدوا من يدفنهم، وطيور حارحة أنخمت من اللحم الشري، وهارين قصوا عنهم عظمًا وجوعًا على طريق القوار، وآخرين اصطادتهم آلات القتل الهائجة في انطريق إلى المدن المجاورة.

غير أن أكثر ما أزعج الصعبره هو ما سمعه عن القري المتبوعين بعوامانهم. من أوهموا بالعفو عنهم، وطُلب منهم لروح إلى الجنوب عبر النهر. غادروا تاركين خلفهم كل ممتلكاتهم، وتكدسوا في عوامات خشبية ممشيه؛ لأنهم يحوزوا بأرواحهم، حتى وإن اضطروا للتحنى عن ديارهم وأرضهم لم يستمر أربابهم طويلاً، فسرعان ما اكتشفوا أن فرق الموت تنتظرهم على الشاطئ، في أحد منحنيات النهر. لم يتمكنوا من الهرب. خلال أقل من ساعة قضى المسلحون عليهم بالخناجر والسيوف، وألقوا لجثث في النهر، ليحملها التيار إلى الجنوب، في إثرها عوامات خشبية فارغة.

لم تنتبه لراهنات إني أن الصعيرة سمعت حكاياتهم، ونحلى
أن كواسها وصرأها كل ليلة، ننجأ فقط عن مأساتها الشحسية،
لكن يومها كان منغصاً، نهر تلونت مياهه بالأحمر، ونحش تطفو على
السطح ووجوهها للأسفل. في مرت ترى صالاً تنعكس عليها أشعة
الشمس تقترب من رقب لنحرها، وسماء صافية لورقة تحترقها طيور
بيضاء - غير بهة بما يحدث نحتها.

في تلك المرة، لم نحسم قد بما جرى لأهلها، كما لم تكن لدر قد
سكت مخيلتها وليديها بعد كانت في حاة من الإكر، محا ذهنها
موقتاً كل ما يخص مأساتها، الخاصة، وأنشغل بلعرقى الطامس في
رحلتهم لحوب لم تسق بهم رؤيته أو التفكير فيه.

في الدير، تلقت آميد أول دروسها في اللغة لإنجليريه على يد
مقدته. سأل المرأة عن معنى زهرة اندقى، الإنجليريه، وحين
أحترتها به راحت تكرر حتى طلت لراهبة أنها لن تتوقف عن نكره
أند، «أوليادر»! كانت تنطق الاسم بكل حواسها، كأنها تندوقه وتلمسه
وتشمة وتسمعه وتراه في آن

سألت أيضاً عن معنى هدهد وخوخ وكروان ودردار ودلب وساتين
كانت تكون قموسا من المعردات الصدمة كأنما رغبت في أن تُشيد به
حية حالية من الألم ولا مكان فيه لمعردات مثل در، حريق، دحد،
قتل، خناجر، غرق أو، ختناق

أبدت بهما لتعلم الإنجليرية خير مدرستها، خاصة أنها لم تتحس
ولو قليلاً بدروس الحساب أو العلوم أو الجغرافيا. لم تفهم المرأة، أو
حتى آميدي نفسها، أن الصغيرة كذت لتلجى، بلا وعي، إلى لغة جديدة،
غريبه عن كل ما عرفته، تولد فيها من جديد بلا ذاكرة قديمة غير أنها
حملت ذكرياتها وأشاحها معها إلى مسأها اللعوي هذا.

فشلت محاولات الراحات في دفعها إلى النوح بما مرّت به كلما
سألنها، لم تنطق، وامتنعت عن الأكل أو الشرب لاحظن أنها ترتعب
من النار، وتحدق في حرايات الملابس بعين مدعورتين، وترعش ما
إن تسمع نحيب عريان، إلا أن ملاحظاتهم تلك لم تقدن إلى شيء.

كانت تنصت باهتمام حين تقرأ إحدى الراحات من سفر الخروج،
وبحلاف هذا لم تُداهنمًا بأي شيء ذي طابع ديني اعتادت الجلوس
في حديقة الدير بالساعات محدقة في الأشجار والزهور المحلفة،
متحشية الاقترب من حبلية الصبار حيث صارت تاح الشوك
برهورها الحمراء المائلة للبرتقالي، وحيث رهور اليلوم المجاورة
يدونها البرتقالي الزاهي.

ست سنوات قصتها آمدا في الدير، كانت كافية لتعلم الإبحارية،
وإن طست تنطقها بلغة ثقيلة حشة، لكن هذه السنوات، لم تكف لحثها
على الخروج من قوعتها، والنوح بتعاصيل قصتها مع الوقت كانت
ملهفة للخروج إلى العالم خارج الدير كان هذا محسّرًا للآخرين، بلطر
إلى أن علمها داخل الدير اتسم بالمحدودية، إذ احصر في عرفتها
وأماكن معينة في الحديقة، لكن مع مرور الوقت واستمرار الإلحاح،
دلت التفكير في توفير حياة آمنة لها بالحارج أمرًا لا مفر منه.

هكذا وجدد نفسها في صيدفة أسرة أمريكية تعيش في بيروت،
مدينة لم تكن سمعت بها من قبل. وهناك تعرفت على بيكور كوستكي
وأحبته وهاجرت معه إلى أميركا، حيث صارت أمي كوساكي الزوجة
الشابة والمرأة متقلبة المزاج.

خطاب مكتوب على عجل، تحرهم فيه بقرارها المفاجئ بالرحيل،
كان كل ما تركه لمضييها الدين أقامت معهم لصع سنوات، وعاملوها

كفرد منهم لم يكن راغبة في الشرح أو التبرير، ولم تُرد أن يضايوهما
 بآثروي أو يحاولوا إثناءها عن الذهاب مع غريب لا يعرفون عنه شيئاً.
 صمحت إلى القطيعة مع كل ما يُذكرها بماضيها، ولم يؤنها صميرها وبنو
 للحطاط على الفرار على هذا النحو تمت لو كانت قدرة على محو كل
 آثار أقدمها لسابقة، لو تفقد ذكرتها وتنسى كل ما سبق وعرفته وعيشته
 غير أنها لم تنس، بل على العكس، في سنواتها الأخيرة، ردت بلعة
 الأشورية. راحت تجتر بها موبولوجات طويلة، لا يفهمها أبواؤها ولا
 أحفادها، تحكي خلالها كل ما مرت به أثناء فترة الأحوال تلك حفت
 ذكريات حياتها القريبة واندفعت تفاصيل معيشتها في اسمهرج بحيث
 صارت كتلة لا تتصح لها مع لمها، وضلت أحداث سنواتها الأولى مُشعة
 الوضوح، خاصة يوم احتضت السماء فيه خلف طبقات من الدخان وعطى
 كل شيء مشغبطات فحمية مميتة.

إذا كانت موبولوجاتها المستعلقة على أفهامهم تؤثرهم، إذ تُوحى
 بجمون محتمل، فعساؤها كان يطربهم، رغم إيمعائه الحرية ونرت
 صوتها المشحونة بالشرح. حاولوا حرها للعودة إلى الكلام بالإنجليزية،
 إلا أنها لم تتحأ للغة مفها، في تلك الفترة، سوى مضطرة وللتعبر عن
 حاجاتها الأساسية فقط، وم عدا هذ كنت تحقق كلماتها للإنجليزية
 وتدفعها في أعماقها، مفضلة لعة قديمة لم تكن حتى مأكدة إن كانت
 تطلقها بطريقة صحيحة أم محرفة بحيث تناسب معجماً محدوذاً بطلعة
 في العاشرة اعتادت أن ترر كش حملها بمعدرات تركية عديدة.

في يومها الأخير، كانت راقدة على فراشها غير قادرة على البطق،
 ومحاطة بأبنائها وأحفادها. أحابت النظر في وجوههم، فلم تر بينهم
 من يشبهها، كأح حياتها ابوراثية كانت غير فائدة للانتقال والحلول في
 آخرين، أو كأنها هي بحلت بحجانتها ولم ترد لها أن تعدو حير حسدها
 من بين الحمير، توفقت عيناها عند روز روجة حميدها آدم، وحطر

لها - لأول مرة - أن عيني المرأة الشابة تدركان معي الألم، وأنهما صديقتاها بمعنى ما. لمحت ارتعاشة خضفة في يدي رور، وخمت أن عدم ارتياحها يتعدى وجودها في حضرة محبور محتصرة ثم تلاشي كل شيء من ذهن امي كوستاكي باستثناء سماء بلون المبرور تخترقها ضيور بيضاء شبه النجم يتبعها حديد يحمل ثمرة خوخ بين محالته في لحظاتها الأخيرة عمرنها رائحة عطر قديم مزيج عبق عرق حدها قبل عقود، وسكنتها مجددا رائحة شواء لحم بشري، ثم غابت عنها هذه الروائح بدورها، وسمعت ترانيم بلعتها الأم، فأغمضت عينيها على مشهد السماء المبرورة المربيه بالسحب والطيور

عالم أزرق

من غير المصنف حصص من احترام له اسم فلا ديمير في تفصيلة عجوز
بذرع حسر تشارلز حيلة ودهان في حلم كميليا، أو رجل مولع بالتسكع
في تخيلاتها. هو أولاً لا يرى نفسه كعجوز، بل يشعر بأنه لم يتجاوز
الأربعين بعد وثباتاً، هو صحيح مهووس بالسير لطقوسي ولا يمكنه
العيش من دونه، ويهرب دوماً من تخيل احتمالية أن يفقد قدرته على
الحركة مع تقدمه أكثر في السن، لكنه لا يفسر حياته ومغرى وجوده من
خلال الحركة، من اللون، وتحدثاً الأزرق بأطباعه ودرجاته. لا يؤمن
بالجنة، لكنها لو وجدت، فمن المستحيل عليه أن يتصورها سوى على
شكل فضاء شامع متدرج الزرقة.

بالنسبة له، الأزرق ليس لوناً، بل درجة أعلى في سلم التطور لكوني.
وهو صغير كان يطلب من والديه كل شيء بنون أزرق، يحبرهما
برعته في مرقاة ررقاء، كوب لن أزرق، أو شمس زرقاء. ويعصب
حين يعجزان عن تحقيق ما يريد ويحاولان قناعه بأن هناك أشياء بنونه
المفضل وأشياء أكثر بالوان أخرى.

اعتاد أن يكي عالم أزرق.

مع الوقت، بات يستخدم مصدرة «أزرق» للإشارة إلى الجودة

والمحاطة والرقى - حررها من ارتباطها بالحرن والكبة. ربما كن عشقه لهذا اللون - وهو عشق لم يتجح هو نفسه في فهم أسابه ولا دواعيه - هو ما دفعه لرسم عندما انتبه مرسومه والمحبطون به إلى أنه موهوب وبدأوا يشجعوه، كان هو مقنونا بالمساحة التي يتيحها له الرسم للتعامل مع الألوان، بالأخص مع لونه الأثير بكل درجاته

في لوحاته، أعاد اختراع العالم على مقاس أحلامه. عالم أزرق كما يسعى له أن يكون. الأزرق بدرجاته هو المسيطر على معظم لوحاته، حتى الألوان الأخرى تظهر في أعماله مشوبة بالزرق، مختلطة بشكل أو بآخر بطل من صلال اللون التكاملي - هذا ذهبي ممزوج بغلاله زرقاء، وذاك أحمر مرقق، وذلك أحمر بمسحة لا يمكن محاكاتها من الأزرق

ثم تعدى الأمر هذه النقطة بعد حصوله لدرجة ليرائه المياه لبيضاء لم بعد عواصفه الفنية وحده عارفة في الزرق، بل صارت عينه تضيق أطراف الأزرق على كل ما يراه، كأنه يبصر العالم من حوله عبر ستاره زرقاء شفافة أو عذسة تصبغ ما يراه بالأزرق لا يمكنه الشكوى من هذا، لكنه كان يتساءل أحياناً هل وقع فريسه لهلاوس لونية؟ طيب العيون أحمره أنها حالة مؤقتة تُدعى مسانوس، لكنها دامت أكثر من تقديرات لرجل، واستعصى علاجها عليه لم يزعج هذا فلاديمير، سحر فقط من مفارقة ألا يرى رسم الألوان على حقيقتها، وأن يصل لعينيه مختلطة بوجه لوني، ثم توفقت المفارقة عن إدهاشه حين تذكر أن من جوح مدين بألقى لوحاته نغمي ألوان محتمل كن يقل به الألوان سرجات أبيه مما هي عليه في الواقع.

لا يعني هذا أنه يضع نفسه في مصاف فان جوح، فلو شئت الدقة، لم ير فلاديمير نفسه قط كفنان تشكيلي، هو فقط عاشق للأزرق ولا يتحين العاصم من دونه، لولاه لما خطر له أن يحترف لرسم. لولاه لنعج بالتصوير المتوعرافي ولكتابة للمصحف والمجلات يسهل عميه النظر إلى الكتابة والتصوير كمهتين ملائمتين له.

انتبه لأول مرة إلى فداحة تلاعب عييه بما يراه أثناء زيارة إبي هولند .
أمام حقول التبوليب بمهرجان ألوانها المتنوعة . بدلاً من رؤية صف من
الرهور النفسجية ، بجوار صفوف أخرى من مثيلاتها الصفراء والحمراء
والبرتقالية ، كانت مسحة ررقاء تغمر كل شيء . كان التبوليب كله منقوعاً
في الأرق ، كأنه تكرار مربع لزهرة واحدة

استعن المروسة لإعرق نفسه في الرسم ، في ترجمة جنون عييه
إلى أعمال فنية ، لم يكن متأكداً من مدى جودتها ، لكن كن لها مقبول
لسحر في طرد الهلاوس وحدها ، الكتابة بعيداً ، ولو مؤقتاً طالما يده
مشتعلت ومشدودتين إلى «بلنته» للألوان فهو آمن ، أو على الأقل هذا
ما كان يؤمن به .

مرة واحدة ، تمى لو فشحت هذه العشاة الررقاء عن عييه كان في
إيطاليا ، في سيارة تنقله من مطار مسينا إلى محطة لقضارات الرئيسية
بميلانو كي يستقل قطاراً إلى فيرارا ، هواء الخريف يتلاعب بالأشجار ،
وبساتين الكروم ، لثقال معتدة على طول الطريق ، وأعيان إيطاليا لا
يعهم كلماتها لكنها تسحره تبعث من راديو السيارة ، لشمس لسطعة
كان من المفترض بها أن تضفي ألقاً على كل شيء ، بطريقة تتيح للضوء
أن يلهو بلا اكتراث ، لكن بدلاً من الاستمتاع بأنواع الضوء والظلال ،
كان مشوّشاً بغممة تنقل له العالم معلقاً بلون واحد وإن تعددت درجاته

ارتدى نظارته الشمسية وأسند رأسه إلى مسد المقعد ، مستسلماً
لعبث لسيب شعره ، ومحاولاً الرؤية بعيني ذاكرة

في طريق العودة من فيرارا إلى ميلانو ، ألغى حجز القطار ، وعاد
بسيارة مستأجرة ، يحيله أمل مر و غ بأن لبساتين والأشجار والشمس
ستدخله في مزاج متوسطي ، قد يعيد له عييه القديمتين . وكل ما حصل
عليه ، كان عالمٌ مملئاً بالأرق ، وثرثرات لا بهتية من سائق ، يجرب فيه

تجلبيرته الممطرطة ونكاثًا بذينة، تدخله في موحات ضحكت هسترية،
لا يتبته معها إلى أن الراكب الحالس في المقعد الحلفي يقتله الصجر.

حلال تلك لفترة ظل السر بلا هدف ملجأ، كما كن دومة رجم
تقدمه في العمر، حافظ على سيره الطعوسي المنقذ. كان ينصر إلى نقصه
ثابتة في نضراع أمامه، ويواصل المسير. تعاوده مشاهد من مصيه يرى
وجه أمه المتعب، المتعصب، وبظرة أولجا المسائلة، وإيمان وهو بهلل
فرح بهدية ما. ينصر نفسه حالسًا في عربة الطعام بقطار سريع، وأمامه
شمعة مهرة الإضاءة، ينسى المصاييح المصاةة في العربة ولا يتنجح
في استعادة شكلها ولا درجة إضاءتها، ويصاحبه فقط الصوء الشحيح
للشمعة، والظلال المتراقصة حولها.

يدهشه أن ذكرياته العديمه متعددة الألوان، احتفظت ذاكرته البوية
بصافتها كمنه، يعمص عيبه فتداعى ذكرياته مصبوعة بألوان تشبه
ألوان «التكني كولور» في الأفلام القديمة. راهبة كرتالية لكن مصطنعة
ومتكلمة يشعر أن ألوان «التكني كولور» تلك شيء مادي مثل أمامه، إن
مد أصابعه سيقبض عليها، وإن حكها قليلًا، ستلاشى وتذوب أخدة
معها ذكرياته

يفقد الذكريات والصور بعيدًا. يفكر في حياته معزل عن ذكرياته
عنها، فيشعر بنفسه أشبه بشخصيه ذنية عاتقة في نلافيف عقل كاتبة شربرة،
تغيظه احتمالية تحرؤ كاسة مفترضة على العث ساريخه الشخصي، لكنه
أيضًا يشفق عليها، إذ يستشعر حيرتها تجاهه، حيرة قد لا تقل عن حيرته هو
لا يتصور أن يكتبه رجل، يحب أن تكون امرأة. مدول، لعوب، تستمتع
بتحريك شخصياتها في دوائر مفرغة.

مؤكد أنها لن تعرف ماذا تفعل به! ولا إلأم تفقد الشذرات الغمضة
التي تخايبها عنه! يفكر أنها لو كانت موحودة، ولو كان هو مكانها، وخطر

له أن يكتب حياته انطلاقاً من بضعة امسيهات وأفكار متشظية، سيلجأ إلى المكر والمراوغة لا عن جهل بنفسه أو صيق برثقيته، لكن لأن هذه هي الطريقة المثلى لمقارنة شخص لا تكف أحاسيسه عن التبدل والتشكك وفقاً للفصاء المحيط؛ سائل يأخذ شكل الإناء المحتوي له، مع اختلاف أنه ليس سائلاً مسالماً يترك للإناء ايد العليا في تشكيله، إنما تحت عطاء وداعته واستسلامه الطهرين يبحر في مادة الإناء ويغيرها بدوره، يشكلها على مقاس رعبانه المركبة ونزوانه الأشبه بطلاسم

كثيراً ما كان ولا يزال يفاحي نفسه بقرارات غير مفهومة ولا يمكن تفسيرها ارتكاً إلى مسطق واضح كل النساء اللاتي دخلن حداثته اتعص على أنه أحجة لا حل لها. لا مس إلى فهم دوافعه أو لتنبؤ ردود أفعاله. وأكثر ما شكواً منه كان صمته لئلا لو كانت نساؤه وحيياته السابقات نماذج ممثلة للنساء، ولتيحة التي خرج بها من علاقته المختلفة، أن النساء يكرهن الصمت، بل يحصن منه ولا يتسامحن مع الرجل الصموت يرير في صمته إدانة مصمرة وحكماً مسبقاً صدهن لا يحب التعميم، لكن لطالما كان الحال كذلك في ما يخصه حتى أمه، لمرأة الوحيدة التي أحبه دون قيد أو شرط، كانت تصيق بصمته، وتحاول جره للثرثرة وحته عليها.

«تعت من العيش مع صندوق مغلق». كنت تلك آخر كلمات أولجا له. بعد سنوات من محاولة «إيقاظ رو جهما»، كما كان يحلو لها القول حزمت حقيبة واحدة وعدرت دون انتفاة للخلف اختار إيفان العيش مع ولده، وخلال سنتين التحق بالجامعة واستقل بحياته

رغم ارتساح فلاديمير الداحي لقرارها بالانفصال عنه، صابقه أنها لم تأخذ معها سوى الضروري من اثياب والمتعلقات. بدت كأنه ترغب في إلغاء سنواتهم معاً من حياتها، ولا تريه ما يذكرها بها راقبها، بينما تصع الملابس القبيحة المخترة في الحقيقة، بدا له المشهد مسيئاً،

كأنما أقتطع من مسلسل تليفزيوني ما. كانت حركتها متوترة، انفعالاتها مكتومة، لكن غصصها واضح، كأن كظمها له صاعق منه، فأظهره من حيث أرادت إحقاقه. خطر له أن يؤدي مشهداً أحيراً، أن يتوسل لها كي لا تهجره، لا يعرف إن كان أداؤه سيدو مقنعاً أم لا، لكن على الأقل قد ترصيبها معرفة أنه يريد بقاءها في النهاية قرر أن لا يريد من الألعاب.

بصوت محايد بطن بجملته الخامية «ساندور يعيش في براغ»

خرج قل أن ترد عليه. في عرفة المعيشة وصده صوت رجاء يتكسر، وبعد دقائق انصفت الباب الخارجي حلف أولجا وحقيقتها. لسنوات نالية، ظل لا يتذكر أولجا إلا برفقه شطيا كريستال متكسر، حلمها وراءها في مخدعهما.

لو كان له من ميلودراميتها نصيب، لرأى في هذه الشطايا أعد من كونها بقدي ميثاق من الكريستال الفاجر. يتسم حين يحاول تخيل ما جاز بخاصه، حس رأت الشطايا متناثرة على الأرض، بعد أن رمت التمثال هي ثوبه غصب لا علاقة لانسامته هذه بالقصوة أو السخرية، فقط يسلمه أن أولجا كانت - منذ الدايه - كتاباً مفتوحاً أمامه كي يقرأ سطور و ما بينها، عالمًا هذا أكثر ما كان يصايقه. ربما كانت هناك كلمات ناقصة من جملتها الأخيرة، على الأرجح أرادت قول «تعبت من العيش ككتاب مفتوح مع صندوق مغلق!»

غضبت حين أحرها أن ساندور يقيم في براغ، حلف وراءها شطايا كريستاله وصفت أنساب الخارجي بصوت مدو، بكها في بهايه لمطاف انتقلت للإقامة في براغ هي الأخرى وهو ما كان واثقاً من أنها ستقدم عليه طان الوقت أم قصر. لو كانت قد استقبلت جملته بعضب أول، لربما مسحها العنوان أيضاً، العنوان المكتوب بخط منق على مطاريه، كان يحرص على إعادتها إلى مرسلها معلقة كما هي.

بعد أن استقرت في مدينتها الحديدية لمدة، أرسلت له خطابًا طويلًا
حافلًا بالتفاصيل والحكايات بدأت به «إلى فولوديا أحبيب» طلبت منه
أن يضلًا صديقين لمصدحة إيفان ذكرت شيئًا عن أنها تحب نراع، وتشعر
أنها تشبهه بشكس م. امرأة أرعيبية تبدأ مجددًا في مدينة دخلت لتوها
مرحلة جديدة بعيد فيها اكتشاف تاريخها.

لم تأت على ذكر سندور في أي من خطاباتنا الأولى إليه، نكن
بطريقة ما كان وثقا من أنهم استأنفا علاقتهما. اعتد الرد على رسائلها
بانتظم، وإن برسائل مقتصبة خالية من الثروة وانتفاصيل، وبالطبع لم
تر في هذا تلميحا من أن نوع حكياتها لنفسها، لأنها اعتبرت ردوده
المنتظمة محيرة، كونها تعرف بعضه لكاتب الرسائل وهروبه منها.

مع انتشار الإنترنت، تحلت عن الرسائل الورقية، وبدأت تمطره
برسائل إلكترونية كثيرة، لكنها لحسن حظه أقصر وأبعد عن الثروة
والتطويل راقته هذه الوسيلة أكثر، وأصبح معتادا على من أولجا لإجبره
تفاصيل يومها وزماتها ومعاناتها مع الكتابة، وشكواها المستمرة حين
يتأخر في الرد عليها.

بدأت علاقتهما، عقب سنوات طويلة من الرواح ثم القطيعة،
كأنما نصل إلى حالها المثلى. صار صديقي مرسة، لا يعكر لحب
تواصلهما، ولا تشوش الرعية عليه.

كانت تطلب منه أن يحكي لها عن حديده، تسأل إن كان مشغولًا
بكتابة كتاب حديد، أو الاستعداد لمعرض في أو هو توغرافي اعتاد الرد
على أسئلتها باحتمار، أو إرسال أحد مقالاته لها أو نقد صحفي لأعماله
الفنية.

لم يحك لها عن تفاصيل تسكعه اليومي، أو انتساء التاليات لها في
حيته، ولا بالطبع عن مسحة الأوراق المغلقة لكل ما يره مؤخرًا فقط

أحبرها أنه جدد البيت، وغير كل الأثاث القديم، وأنها لو قُدِّرَ بها زيارته
يومًا لن تتعرف على المكان باعتباره بيتًا مسبقًا لها.

لم يحبرها، أنه لم ينظر إليه، طوال سنوات زواجهما، كبيت له، وأنه
لم يقترب - في نظره - من مفهوم البيت وإحساسه إلا بعد أن جعل
الأرق، بظلاله ودرجاته، اللون الطاعني عليه وعلى كل ما فيه الأزرق
الذي لطالما رآته هي معادلًا للبرودة والصقيع، هو معنى انوطن وتعريفه
بالنسبة له. وطن خيالي، مقطوع عن العالم، تعمده ثلوج تحالط بباصها
زرقه معوية، تدعوه للالتحام بها والتماهي معها.

امراة حلمت أنها وردة!

تطر أولح من الذوده فتلمح الفلتاف غرق في داته، وتل «يترين» بعيداً ومكلاً بالأشجار والحضرة في لجهة الأخرى منه. تتأمل حسر تشارلر من مسافتها الآمة، فتكاد تبصر تماثيله الثلاثين كأما لا يحصلها عنها سوى سنيتمرت قبيلة. تحدث بأصوات السائرين عليه ويأتي الموحات الهية والصور لتوتوغرافية القديمة والحلي. يخطر لها أن «فولوديا» لو عداش في براغ لقصى معظم وقته عاتراً جسر تشارلر ذهناً وإياناً أو صعداً تل يترين ثم هانطاً منه، بعد الارتياح قليلاً في «حديقة الورد» والمروور بـ«متة المرايا» والاسمتاع بمراقبة المدينة من أعلى برج يترين، سيروقه حتماً، لإحساس المؤقت بأنها في قصة يده وممتدة أمام عييه، لكنه أدكى من الانجذاع بمراوعتها، وسندرك أنها ستطن أبداً مستعلقة ومسكئة على نفسها تتساءل في سرها هل لا يراب محافظاً على عادة التسكع اليومي بعد كل هذه السوات الرسائل الإلكترونية التي يرد بها عليها مقتضة في لعالب، لا يوح فيها بالكثير عن حياته الشخصية أو تفاصيل يومه حين يروها إيما في براغ، تستعن الفرصة لمعرفة أكثر قدر من المعلومات مه عن أبيه لكنه مثله، صامت أغلب الوقت، وإن تحدث فعن أفكار وقضايا مجردة لا تفاصيل حياتية خاصة

تدير ظهرها للدفء، وتحاول ترتيب مكتبها، أو لندقة تحاول لو صول
ه إلى درجة الموضى الملائمة لإنهامها. على الحائط المحجور عُلقت
صورة بالأبيض والأسود لحسر تشدلز غائب في الصواب. وأخرى
لـ«داتش» على أطراف عانة حبيكي، ولوحة لندقة - بأبراح عديدة
معلقة بين السحب وأسفلها حملة تشيسرتون «لا قواعد معمارية لقلعة
في الغيوم».

تأمل وردة برتقالية في كوب أزرق مرسوم عليه الحجاب الأبيض نوحه
كافكا بالأبيض، ثم تغرق في أحلام يقظتها على أنعام أعنيات فلاديمير
فيسوتسكي، فيرتفع من غرفة ساندور صوت ماري كلاس مخرجاً أو لجا
من خيالها لو كن ساندور شخصية فنية مكتها لا اخترت له أب يرلع
بصوت فيسوتسكي صوته نفسه يذكرها بالمطرب الراحل، يملث نفس
البحر الحسية الخشنة بشكل محبب.

لكن ساندور ليس شخصية خيالية، كما أنه لا يطبق لمغني لروسي،
ولا يكف عن السحرية مه كأثمة عداء شخصاً منهم، في حين أن
فلاديمير كن مغرماً بفيسوتسكي، ومؤمناً بأن من لمستحيل على أي
شخص غير روسي فهم ما تحتويه أعنياته من توريات واستعارات رومبة
صرفه

ترفع صوت فيسوتسكي قليلاً فيرتفع صوت كلاس أكثر في مندفة
غير معلنة بين الاثنين. صار ساندور لا يشيع من سماع كلاس يغلق
على نفسه باب غرفته بالساعات، ويساب الصوت الأوبرالي في الفضاء
خارج حدود الغرفة، فيخيل لأولجا أنه ما إن يخرج من شقتها إلى
المضاء المحيط مسير دحاًناً لم يعد ساندور يقترب من الباب لحاص
به، لا يكاد يقرر إليه أصلاً فقط يستمع لكلاس يشغف يقارب الهوس،

ويخرج للبرض صباح كل يوم ويعود وفي يده باقة من زهور اليبس، يصعها في مزهرية صغيرة فوق الكومود المجاور لسريره ويتأملها بافتتان. تذكر أولجا كيف كان يحدثها عن زهرته المفصلة بحماسة في لُماضي «انظري إلى هشاشتها ورقفتها! حين تتأملين باقة كمية منها من مسافة مناسبة، ستلاحظين أنها أشبه بدانتيلًا بيضاء معرولة بحب ومهارة».

اعتاد أن يردد هذه الجملة، كما لو أنها اكتشاف نادر توصل إليه للتو، فتوقفه هي ولا تسهه إلى أنها سمعت هذا الكلام منه مئات المرات. مع الوقت صار التكرار سمة أساسية لشخصيته بعيد سرد تفاصيل من ماضيه بشكل مختلف كل مرة. يتصرف كمن يموح بأسرار عظمى، رغم أنها حكايات تحفظها هي عن ظهر قلب.

هاجأها أمس برغبته في العودة إلى «بوداست». لم يصب منها أن تسهر معه. قال إنه لن يتوقف عن زيارتها في براغ، أو حتى في موسكو لو قررت العودة إليها أدهشها أنه، على مدار سنوات علاقتها الممتدة، كثيرًا ما أكد أن مديته طموته وصبه قد رالت، وحلت محلها مدينة أخرى لا تشبهها ولا صلة تربطه بها. اعتاد أن يقطع زيارته الباردة لها بعد يومين على الأكثر، مررَ هذا بأن وجوده في قريته المريفة، يكشف له أن أحداث ماضيه وهنائه مجرد أوهام لا دليل عليها وحده الذنوب يهمس له بأنه عاش هناك ذات يوم، وتسلق الأشجار، وسقط من فوقها حتى تحولت مساقه إلى خريطة غير مقروءة من الحدوش والدوب.

لم تعرض أولجا على قراره، ولم تحول شيء عنه احتضنه طويلًا وقُلت رأسه. أجبرته أنها ستورده هي الأخرى، ما أن ستقر هناك خاطر ما أسر لها بأنه سيقبل هذه المرة احتمالًا معًا معشاء على ضوء الشموع رينت له المائدة بزهور اليبس وبمفرش من لدانتيل الأنص. بد سعيدًا لتقبلها قراره بساطة، تصرف كأن عنق قد أريح عن كاهه. أحمره

أنه سيعود للعزف مجدداً، وأنه طلب من وكيله ترتيب نضع حفلات له في بودابست. شريت معه كؤوساً عديدة من «البليكا»⁽¹⁾ نخب بجوانه المر حوة، وأسعدها السرة المتعائلة لكلماته.

سهر الوقت متأخر يستعبدان تفاصيل ما صيها المشرك لاحظت أنه أحد حين ذكرته بلقائهما الأول في حديقته «حوركي»، وبالشجار القديم بينه وبين فلاديمير أمام الدانسا الواقعة على أطراف عدة «جيمكي». صمت حائراً لبرهة، قبل أن يرد بألفاظ التقيا، أول مرة، في حفل رسمي أقيم في براغ بمبنى البرلمان القديم ضحككت حتى دمعت عيناه، بطالما أعجبت بحمة ظله وفكرته على توليد الصبغت بحمل تبدو حادة ظاهرياً. لم تنس له حيرته وهو يتابع ضحكها الصاحب. أمسكت بيديه وقتلتهما وهي تسمى له لتوفيق. هنالك في مدسة ليست مدينتها وحيدة لم تشاركه فيها استعادت في سرها تفاصيل الحفل الصاحب على هدمش مهرجان موسيقي كان أحد المشاركين فيه لم يكن من الصعب الوصول إلى عارف معروف مثله في مدينة كـ «براغ». أو تأمين دعوة لنفسها إلى لحفل عبر نشرها التشبكي حين لمحتته واقفاً مستنداً بمرقه إلى طاولة مرتفعة ويده كأس شامبانيا، كاد قلبها يتوقف لم تتحه إليه فوراً كما ضنت أنها ستفعل خلال كل المرات التي تحيلت فيها لقاءهما بعد قطعة امتدت لسنوات، طلت فقط تتابعه من الجانب الآخر مستظرة أن يتبعه لوجوده. كانت وثقة من أنها ستترك من ردة فعله على رؤيتها. إن كان لا يزال يحبها أم لا² تعلق عياها به ناست الثروات حواها، الموسيقى ورئيس الكؤوس. ما إن لمحها حتى أشرق وجهه. فالتحت نحوه متجاوزة رحام الواقفين بينهما يشربون ويتصاحبون. لم يحاحا لندكلام، ظلت ملتصقة به طوال الساعة التالية مرتاحة للقاء في حصه، ثم اسحبا من الحفل متجهين إلى مثقته. في الطريق ابتاع لهما باقة من دهور اليبسان

(1) لير ليدى المجري، ونصع من الكور أو المشمش أو لكشمري

لم تصدق في ابداً عندما أخبره بأنه أرسل لها عشرات الرسائل راجياً يراها أن تلحق به في براغ لكن الرسائل كانت تُرد إليه معلقة كما هي. غير أنه حين حدثها عن لقائه الأخير - قبل رحيله عن موسكو - بفلاديمير، أدركت أن فولوديا هو من أحصى عنها الرسائل الأولى وأعد الخطابات التالية لمرسلها.

كان ساندور لا يزال على تشوشه، وهو يعب كزوس «أبالينكا»، ويظهر إليها عبر المائدة كمَنْ يرغب في سؤالها عن شيء لا يدرك ماهيته، فابتسمت رغم أنها لتعبيره الدهش لطفها شعرت معه بأنها شخصية أخرى أكثر ساطعة ونُعماً عن المملحة والهويل ربما لو كان فولوديا هو من سألها، بقدر مماثل للشاحرت وعصبيت، أما مع ساندور فلا شيء يستدعي ردود الأفعال الدرامية أو حتى أي ردود أفعال

استيقظ صباحاً كأنه شخص آخر غير من سهرت معه حتى بروج امجر كن شاردًا ومقتصباً في الحديث، خرج لزيارته الصاحبة وعاد يزور البيلسان كالمعتد أخبرها أنه سسافر خلال يومين ودخل لحرم حقائبه كمن يستعجل الرحيل، ثم تعالى صوت كالاس ما إن شعلت هي أغنيات فيسوتسكي

عاودت تأمل وردتها الرتقالية. لا تتذكر متى صار وجود ورده بهذا اللون أمامها أحد طقوس الكتابة بديها! بل لا تعرف متى أدركت أنها مبرمة بطقوس وعاديت لا تستطيع التخلي عنها بسهولة

فكرت في كميليا، بة تحيلاتها وأحلام يقطتها، قراقها أن يكون لها، هي الأخرى، شعائر يومية لا غنى عنها كأن تكون مثلاً معتدة في طمولتها على عد خطواتها، وإذا أخطأ أو سبت تتوقف عن السير وتعود لقطعة لده، أو أن تكون قد طلعت تحرص على طلب مشروب بعينه بعد رحيل أيها بفترة، رغم أنها لا تستطيعه بمدقه اللادع، لكنه

صار جزءاً من علاقتها بأبيها وطقساً يبعد عنها الشعور بالذنب لأنها كرهت دوماً مشرويه المفضل، ولم تكن قط الالته التي حلم بها!

في الكتابة أيضاً، على كاميليا، أن تسير وفق شعائر نُحْيِصَ لها تماماً في البداية كانت، مثلاً، لا تستطيع الكتابة سوى في حديقة بيت أهلها أو في الصالة شعبية الإصاء في الجاح الخلقي منه. وكانت لا تكتب إلا سوع معين من الأقلام، من دونه تشعر بالثقت وعدم التركيز ثم بدأت مرحلة الارتباط بحاسوب معين، أو عرفة أو مقهى يعمه المهم الحفاظ على روتينها المعتاد مهما حدث.

ذكرت أولها كيف تخيلت كاميليا جالسة على مقعد في حديقة عامة قريبة من الين وهي مسكشة على نفسها كظائر ميلن وحريج، فحظر لها أن تكون الشعائر شه الثاثة وسيلة كاميليا في الانسجام مع العالم من حولها، كأنها نتخذ من شعائرها بيتاً بديلاً، تستأجر الأماكن العربية والأوقات المضطربة وترؤضها دألة الطموس اليومية. بل كأن هذه الطموس تحديداً هي كاميليا، هي هويتها وجوهرها، بحيث قد سوب وتعرق في هوة العدم من دونه. يصعب لو توقفت عنها

بأنسبة لكاملنا - كما تخيلها أولها - يفتر الحضور لشعيرة يوميه مسيطرة من الهوس، ويصبح عادة إدمانية مُستعبد لا يحب من أن «لشعيرة» - كمعردة - ذات جذر ديني، إذ تشير إلى طريقه من طرق العباد، والعبادة غير بعيدة عن الاستبعاد.

تهز أولها رأسها، وتسنّي تعديلاً طفيفاً تقرّر أن كاميليا، رغم حصوعها شبه لتمام لشعائرها وعاداتها، تستبدل بها أخرى من مرحله عمرية تلبي تليها، كأن طقسها الأساسي هو أن يكون هناك طقس ماء حتى وإن تبدل عبر السنوات لا يعني هذا أنها تقاوم طقس ما وتلوذ بأخر، على لعكس من هذا، تخصص لها بامتناع غير مفهوم، تغمس

فيها حتى تتلاشى من تلقاء نفسها، ولا تنتبه هي لتلاشيها إلا حين تدرك أنها تبست شعيبة جديدة

لفترة قد تطول أو تقصر، سيكون الجلوس شاردة إلى مقعد في لحديقة القرية من النيل صقسيها الأثير. تمر اساعات دون أن تحس بوطأة مرورها.

يرتفع صوت مريا كالاس مجدداً، حتى يتحول إلى محض صبح، فتقاوم أولها ارتفاعه المبالغ فيه بالانغماس أعمق في حبالها نسايتها اللعبة، فتحاول بلعها إلى مستوى أعلى مدا لو كانت كاميليا الجالسة إلى مقعد الحديقة نائهة في فكرها وهي تربو لشجرة محدورة تفكر في روز راحة دم راحة في تحويلها إلى شخصيه فيه^{١٩}

تترأى روز دومًا لكاميليا وهي تهر أر حوحة فائتها الحلقى كاسا تفرح طعلاً لا مريبًا تعاصفت كاميليا معها حين حكّت لها عن طفلتها التي رحت وهي في الحمامة، ومحدولانها غير الموقفة للحمل مجدداً. اندهشت لأن آدم لم يحورها - حين التقيا في براع - عن طفلة راحلة، وبضعت دهشتها عندما عرفت منه، في آخر يوم قصته في ضياقتهما، أن زوجته لم يسبق لها الإنجاب.

لم تكن روز تكذب عليها، هي واثقة من هذا بدت مؤمنة تمامًا بقوله، لدرجة أن عينيها اغرورقت بالدموع. حاولت كاميليا حسنها تحيل ملامح الانثة المقترصة لروز وآدم علم بطلع كأنما قرأت أفكار صبيقتها، وصفت روز لها صعيبة شقراء بعيتين تميل ررقتهما إلى المنسحي الفاتح قالت إن اسمها كان «فيوليت» نسبة للون عينيها، ولأرحواني بدرجاته كان اللون الغالب على ملابسها.

لن تعرف كاميليا أبدًا، أن فيوليت كانت شقيقة روز وليست ابنتها، ستظنها مجرد حكاية محتفة، أو طيفاً محنومًا به ومرعوبًا فيه، وإن كنت

لن تفهم ما ابدي يدفع روجة آدم لا خلاق «ابيه» وهمية والكلام عنها بهذا التأثير انطاقي. يومها ترددت كاميليا قليلاً، ثم حكّت لمصيفتها ما سبق وصفت به على آدم خلال جلستهما المشتركة ببراق بصوت هددى، يكاد يخلو من المشاعر، قالت لروز إنها فقدت جنيناً في أسبوعه السادس، لم تشرح لحلميت ولا التفاصيل، ولم توضح أنها أجهضته، كما لم ترح بإحساسها المؤقت بالارتياح وما تلاه من شعور مبهين بالذنب وأرق وكوابيس، إلا أن مصيفتها بدت كما لو كانت تفهم كل هذا من تلقاء نفسها، إذ احتضنت كفها بين يديها، وسحبتها برفق إلى الحديقة، حيث أجلستها على الأروحة وراحب تزوجها بصمت ارتياح كاميليا للحركة المهددة انحطت بفق من أن تكون ثقيلة على الأروحة الماسية أكثر للأصغر أو لحسد ناصح بحيل خشيت أن تقطع السلسلة التي تربطها بالشجرة أو ينكسر العرع الحامل لها، غير أنها تناست وساوسها هذه، واستسلمت لإحساس التراجع المهدئ لأعصابها.

طول الشهور التالية، لن تتذكر روز كاميليا إلا عبر لحظتهم تلك لن يستعيد كامرأة واضحة بل كطفلة متألمة في حاجة إلى الترييت والاحتضان ستقرأ - بنرشح من آدم - بعض قصصها المترجمة إلى الإنجليزية، ونكت لها أن القصص فاحشاً كونها محتفة، حد التضاد، عن شخصية كانت أو على الأقل ما يبدو من هذه الشخصية للآخرين ستعجز عن توضيح ما تفصله، وستمنى لو يفهمه كاميليا دون حساسية أو حاجة للشرح.

كانت روز تقرأ قصة كاميليا، «حيث السحب مخفضة»، في العراش، ثم عليها انوم فاستسلمت له ونامت في أجواء حلم مصوغ كعدة أحلامها بالأوان «السيبا» السنة المائلة للحمرة على غير العادة لم تكن طفلة، ولم تكن في بيت أهلها القديم، بل فوق تل يشرف على صحراء شامسة به بستان زيتون ويثر.

في الحلم، كنت روز وردة بيضاء - أوراقها ملتفة حول نفسها - مزروعة أعلى تن كنت وردة بيضاء، ومع هذا كانت تشعر بجسده الأدمي كما لم تشعر به من قبل؛ بكثافة ووضوح. وكانت حوسها مشحودة كأنها تصدعت وتجدورت حدود المصعف الشري. لم تكن موسومة بالنقصان، بل تامة وكاملة بدرجة موجهة ثم هتت ربح فصنتها عن عصها، فتدحرجت من أعلى التل، لم يؤلمها التدحرج، بدا كأنه خصيصه تتمحور حولها حياتها في منتصف المسافة نحو الأسفل، بدأت بتلاتها في الانفصال والتطاير بعيداً مع كل وريقة تصعصع عنها، كانت تشعر كأن عصوا من أعصاء جسده يذب ويموت. في النهاية لم تكن سوى عيين محدقتين في ثلاث حلسية تتلاعب به، للريح.

في السمع كان ثمة سنان ريتون، على رأسه مقعد، يحلن فوقه رجل وامرأة يديران طهرهما للبدان، ويحدقان نحو البئر وصحراء شاسعة تمتد أمامهم العيان الماقتن طناً تتدحرجان - رعم اسنوء الأرض - بعد أن وصلت للسمع، ثم كفتا عن كونهما عيين، وعادت وردة كبيرة بيضاء سرعان ما انقسمت إلى ورود عديدة لونها أرحوسي نزين شجرة ورد في حديقة مهمة لبنت عتيق أعلى التل شعرت روز كما لو أن جسده انقسم على نفسه هو الآخر وتفتح عنه زورات عديدات، مثل ذواتاً متنوعة لها، تهتر نعومة جعل السيم المتلاعب بأعشاب لحديقة وساداتها على مربة كنت هناك حيمة بها ستة رجل يتحدون بأصوات حشنة مُنَالغ في ارتفعها، بينما يتناولون أكواناً منابغة من لشاي، ويشعل كل منهم سيجارته من التي تسبقه. من نافذة جانبية أضل رجل سنيي ناطراً للسماء كأنما يرعب في حفظ تفاصيله في قلبه، ثم رب طويلاً نحو الورد الأرحابية. جسده مشدود ووجهه مرهق وعينه زائغتان، تكن هناك سكية رواقية تغلقه كأنه واقع تحت تأثير مهدي م.

غاب مفهوم الزمن كما نابض روز في الواقع، في حلمها ندارماً مكثماً

كأن أعمدة، وحيوات كاملة ممكن صفحتها في لحظات، أو كأن كل وردة
أرجوانية صغيرة، بإمكانها التحديق في زمن معبر لما تعايه جاراتها.

أحسراً عادر الرحال خيمهم، واتجهوا البيت، قبل أن يخرجوا مجدداً.
اثنان منهم يحران الرحل السبيني، كما لو كان حوال بطاطس، بينما
يحاول هو تسريع خطوته، كي يبدو كالسنتر معهم يرددته، والأربعة
الساوقون يحيطون به وأسلحتهم مشهورة رغم محاولاته للإسراع، بدا
الرجل في عالم آخر.

بعد وقت لا تعرف إن كان طويلاً أم قصيراً، تندهي لروز المقسمة إلى
ورود أرجوانية بهرها السيم، أريز متواصل لطلقات آلة، توقف لبرهة،
ثم عد أقوى من السابق، قبل أن يرب السكوب لاحقاً، سيحظر لرجل
السنة أن الرحل السبيني كان واقعاً تحت تأثير مهدئ م، وسيبادون
الاتهامات، ويحاول كل منهم التبرؤ من مسؤولية حقه بالمهدئ بالسنة
لهم، كان ينبغي أن نطل ذهبه صافياً، أن يكي ويتوسل ويرتمي على
الأرض مستعطفاً، لكنه بدلاً من هذا، وقف هادئاً غير مكتثر، فحلاً
تصوير المشهد من المعزى المراد.

كان صوت الشجار لا يزال طاعناً حين تسبل أحدهم عدائاً إلى حيث
اصطحبوا فللاً نسبي وتضاعف الأثير. ثم عاد كل شيء حلف ستارة
أرجوانية مميكة، وصحبت روز مرتعشة بجفن متورمين وقد تلاشت
معظم وقائع حلمها من ذاكرتها، ولم يبقَ منها سوى زهرة متدحرجة من
فوق تل يعلوه بيت أمبه بقلعة مهية معلنة بين السحب

حَبَّةٌ وَاحِدَةٌ تَكْفِي!

«حَبَّةٌ وَاحِدَةٌ فِي انْمَسَاءِ نَكْفِي!» قَالَ الطَّبِيبُ.

«سَوْفَ أَنْتَظِرُكَ فِي الْمَسْتَشْفَى فِي الْعَاشِرَةِ صَبَاحًا». قَالَ أَيْضًا.

حَالِسَةٌ فِي الْمَرَارِشِ وَفِي يَدَيْهَا الْحَبَّةُ مَعْلَعَةٌ لَا تَرَالُ، وَعَيْنَا الْكُومُودِ
كُوبِ مَاءٍ أَحْضَرَهُ مِيرَاقٌ أَنْ يَتَمَدَّدَ بِجَنْبِهَا. لَمْ يَتَكَلَّمْ، فَقَطَّ أَطْلَقَ كَفَّيْهِ
عَلَى يَدَيْهَا لِأُخْرَى، مَتَظَرًّا إِيَّاهَا بِهَدْوٍ.

ابْتَعَثَتِ الْحَبَّةُ، فِي الْهَيْبَةِ، وَشَرِبَتْ الْمَاءَ دَهْنَتْ وَجْهَهَا فِي الْوَسَادَةِ،
فَاحْتَضَنَهَا حَتَّى نَامَتْ فِي لِمَسْشَفَى، لَمْ يَكُنْ لَدَيْهَا مَا تَقُولُهُ، سَأَلَ مِيرَ
الطَّبِيبِ عَنْ أَذَقِ انْتِصَاصِهَا، وَجْهَهُ غَيْرَ مَقْرُوءٍ وَمَعَ هَذَا يَصْبُحُهَا حَزَنُهُ وَإِحْبَاطُهُ
«عَمَلِيَّةُ تَنْظِيفٍ بَسِيطَةٍ» قَالَ الرَّجُلُ نَصِيرًا، فَتَرَدَّدَتِ الْعَبْرَةُ فِي
عَقْلِهَا بَلَا تَوْقُفٍ.

عَادَرَتْ نَصِيحَةَ مِيرَ. لَمْ يَتَكَلَّمْ وَلَمْ يَفْتَحْ مَعَهَا الْمَوْضُوعَ مَرَّةً أُخْرَى،
هَرَبَ كُلَّ مَرَّةٍ لَمْ تَحْتَفِ بِهَا إِلَى «عَمَلِيَّةِ انْتِظَافِ السَّيْطَةِ». حَصَرَ عَمِيقًا
بِذَلِّهِ، وَدَمَتْ لَيْلَةُ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَهَالُ لُتْرَبِ عَيْنِهِمْ. تَمَتَّ
كَامِلِيَا لَوْ سَتِطِيعَ تَقْلِيدُهُ، لَكِنْ حَفَرَتْهَا هِيَ لَا سَبِيلَ إِلَى دَمِهَا.

سرطان في المرحلة الثالثة، هكذا شخّص الطبيب مرض أمها. لم تستوعب كاميليا ما تعنيه المرحلة الثالثة هذه. أوضح أنه انتشر من نقطة انطلاقه إلى مراحل أخرى، وأن الجراحة لم تعد خيارًا واريًا بهدوء لا علاقة به بنهرها. لذاخبي، سألته عن مرض المجرة. فأجاب بفتصاب أن الخلايا لقائلة بدأب من الرتين. «سرطان رئة»!

لم يصف حرفًا واحدًا، كأن في هذا جوابًا مُرصيًا على سؤالها، ستعرف كاميليا لاحقًا أن سسة الحياة من هذا النوع من السرطان ضئيلة، وتكاد تنعدم ما أن تبدأ الخلايا انتشارها خارج الرتين.

كان الطبيب قد طلب «مسحًا دريًا» لجسد الأم لتتبع خريطة انتشار الخلايا، لحيثية، وأمر كاميليا بعدم قضاء ليلتها في غرفة أمها بالمستشفى لأن اقربائها من جسد ممسوح دريًا، يمثل خطورة على مريضها، وقد يسبب العقم.

آخرته باستحالة تركها لأمها في حالتها هذه، وافق على مفضل على معانها كمرافقة، وإن شدد عليها ألا تقترب كثيرًا من أمها حتى اليوم لنالي.

كانت دولت ممدده على السرير وعيها، معضبان، من رقتها في الجهة الأخرى من الغرفة، حدثت كاميليا أن أمها تبكي بصمت. لم يكر ثمة صوت يسعث من ناحيتها، كما أنتجت الإضاءة الخافتة أي دموع محتملة، ومع هذا عرفت الالة أن والدتها تبكي. نمانًا كما تنق - بلا دليل مادي - في العلامات ونؤمن بالتناسخ والملاك الحارس، كنت متأكدة من يكاء أمها.

اقتربت كاميليا منها، وحلست على ركتها فوق البلاط البارد، وبدها على الوسادة. «احضيني» طلبت دولت، ودون تفكير صعدت كاميليا بحانتها، تمددت واحتضنتها من الحلف. تجاهلت تحذيرات الطبيب، لم تفكر في المحاطر المحتملة، كانت تلك فرصتها لحميمية لطالما

افتتحتها في علاقتها بدولت. حصص أمومي حنون لا تتذكر أنها اختبرته قبلاً، مع فاروق دان، لم تكن هي الابنة في تلك اللحظة، بن الأم؛ صارت أمًا لمن أنجبته.

انصفت بأمها وتحركت يدها على جسدها في نريسات مهدنة ومطمئنة، فاستحال، لكاءً نشيجاً، مسحت كاميليا الدموع جاءت الممرضة مرتين وانصرفت. حققت مريضتها بمسكن ألم، فبانت بعد ليالٍ من الأرق. لم تخفف كاميليا من احتضنها، كانت تحتاج إلى ادفء والطمأنة أكثر من دولت.

لم تحب مير بما حدث، اعتبرته سرّاً حميماً في علاقة حلت من لحمية ولأسرار. منذ وعت على حقيقة أن امرأة والرجل اللذين تعيش معهم في اسيت الصامت هب والداها، لم تجد برهاناً عاطفياً على هذا، رغم محاولاتها.

لم تهتم بإحراء فحصر للمبيضين، ولم تدم قط على احتضنها لأمها طوال الليل. وعندما لم تحمل بعدها، ظنت أن السب يعود لتعرضها لإشعاعات المسح النووي ولم تشغل بالأمير، مير لديه ولدان من زواجه السابق، وهي ليست متحمسة كفدية لتجربة الحمل والإنجاب.

مرت سنوات على وفاة أمها ولم يحدث حمل، فتحول تحمينها إلى حقيقة لا تقبل الشك، لذا لم يرد احتمال الحمل بآلها، بعد سنوات طويلة، حين تأخرت دورتها الشهرية وشعرت بإرهاق ودوخة دائمين، وتضاعفت ساعات نومها. فقط حين صار الغثبان رقيقاً لصباحاتها، قررت إجراء اختبار حمل منزلي.

حامل؟ استغربت الكلمة. لم تفكر في أنها قد تفترون بها يوماً، خاصة وقد وصلت إلى أواخر الثلاثينات لم تدرك أي فرحة أم حريئة! اموكد أنها شعرت بإثارة مبروكة بالقفق فاجأها بنهاج منير؛ لم يسبق له

التلميح حتى برغبته في طفل منها، ناهيك عن مناقشة المسألة بتوسع
كان محمست كأنه يحتبر مشاعر الأبوة لأول مرة.

لم يكن طبيب العائلة بالحماسه ذاته طلب منها فحوصات وتحاليل
عديدة بتعيرات وجه محايدة.

« شكك في حاجة يا دكتور؟ ». ماله مير فأجاب يهدوء

« للاطمئنان بس ».

صعب في عضلة القلب ، استمرار الحمل قد يمثل خطورة على حياة
الأم. القرار لكمما هذا خلاصة ما قاله الطبيب

أم منير فأحبرها أن القرار لها « هرك وجسدك » قال مضيئاً إنه
لا يحتاج إلى أطفال وإن حماسته للطفل كان لأنه مبه هي، ولا أحد أو
شيء سيعوقه عنها

فكرت كامبينا أن لولادة قد لا تشكل خطراً على حياتها، وأنها
بقرارها إحضار الطفل سوف تحرم روحاً من آلاف لحظات الفرح
والحرر ولأسى والاكتشاف سوف تضع نهاية لمئات الاحتمالات
الخاصة بحياة في طور التشكل. لم تنحيل قط نفسها كأم جيدة، بل لم
تنحيل نفسها كأم على الإطلاق، ومع هذا بدت مشهد تكون في رأسها
لها وهي مع ولد له عينا منير وانتسافتها، أو ست تراث حبالها وعددها
وقوة منير وحزمه.

لم يستمر مير على حيدده. توسل إليها أن تتخذ قرارها بسرعة قبل
نمو الحنين أكثر لم يخف هذه المرة ميله لإنهاء الحمل، بل بصحها
باتخذ هذه الخطوة

دها إلى الطبيب بقرار مشترك. طلب منها الرحل تناول حبة دواء
- أعطاها لها في المساء، والمرور عليه في المستشفى صباح اليوم
التالي.

«حبة واحدة في المساء تكفي». قال.

«عملية تنظيف بسيطة» أضاف.

أفقت من لتحذير لتحذير يحلحس بحايتها ممسك بيدها

«كلمني». طلبت منه، فحكى لها عن قديمتها الأولى في الشرفة
المظلمة، عن انتظاره لرؤيتها من حفلة لأخرى، وجهده الحارق كي لا
تعضحه عيناه حين يراها. ذكرها بطعمة بديلة كادت تحرق شعرها بلهب
شمعة، وشعوره اسمهم بأنه مسؤول عنها منذ تلك اللحظة

في البيت، نامت كأنهم تعوض سنوات من الأرق لحاح إلى
الحبوس المومنة. لم تكن موجوعة جسدياً بقدر إنهاكها النفسي خلال
تلك الفترة، كن ثمة مشهد يتكرر في ذهنها بلا توقف:

ترفع كأس ماء إلى فمها، ترتعش يدها، فيقع ويسكر. تحنني على
شطابا الزجاج، وبدلاً من جمعها وتنظيف المكان، تستغرق في الهباء
تبكي بحرقه لا يفهم منير سبب لها، ولا يسأل عن سبب. يساعدها على
لهوض ويحلسها في حفنائه، يمسح دموعها ويرتب خصلة مافرة من
شعرها خلف أذنها.

تدفس وجهها في صدره وتستحب. تعود طفلة كاد بهب اشمعة
بحرق شعرها، ولم يلاحظها في صحن الحفل وضجيجها سواء. تفكر
في أنه بتعطيتها رأسها حينذاك بسترته وجسده، كان يتعهد دوماً بقصد
- رابطة لن تفصم حتى وإن تغيرت طبيعتها من زمن لآخر.

لا تتذكر سبب بكائها القديم ولا إن كان اسمها حقيقة أم لا، لكن
مجرد استعادته تشعلها مؤقتاً عن ما هي فيه من اكتئاب لم تتوقع شدته.
ركن منير إلى النسمت، خصص لها حراً كبيراً من وقته، وحاول أن
يكون بجوارها طالما هي مسيقطة، غير أنه نادراً ما كان يتكلم.

«أن أحسن وأجلب طفلاً، يعني أن أدوب وأتحلل لأكون آخر، لأكون آخر. سيتعدى عليّ على دمي وأعصابي ولحمي» اعادت أن تقول في سرها، لإقناع نفسها بأن تلك حميمة لم تكن لتقوى عليها، ثم تكرر لتحمّلها. احتمالية أن تواجّه بسعة أخرى منها تزعمها، وإمكانية أن تحلف ذاتاً ممعة في اختلافها عنها تشعرها كما لو أنها ستعرض لخيانة لا تُطاق، وما يبهما من درحات لا يمحصها عراء يُذكر

بعد أسوع من الكاسل في فراشها، صار مجرد انوجود في البيت يخفها، في تلك المرحلة اعتادت التسكع في الشوارع بلا هدف، ثم لجلوس لساعات في أي حديقة عامة تقابلها. من س منزهات عديدة رتادتها، ارتاحت للحديقة الصغيرة في مواجهة دار الأوبرا. هناك بددت بعضاً من أيامها شاردة في الفروع أمامها، أو محدقة في تشكيلات السحب أو فقط منصّبة لأصوات السيارات المارقة في شارع التحرير القريب تحديقاً في المسافة الفاصلة بين كوبري قصر النيل وكوبري الجلاء - في طريقه لوجهات لا تعرفها كاميل، وتشغل أحياناً بتحليلها، في تدريب فعّال على قتل الوقت والنمثيل بحثه

أثناء تلك الجلسات، بدأت في تحيل الهوة المسعة باطراد بداخلها، بل بدأت في رؤيتها ما أن تغمض عينيها هوة عميقة مظلمة في البداية، قبل أن تنقشع عثمتها كاشفةً عن مياه ساكنة تدعو كاميل للغرق فيها

تتلاشى الهوة وسجف المياه، نقيق وتلنّف للحمه، الأخرى، فتلمح شجرة جميز ضخمة على مقربة، تعاود الشرود محدداً متجهلة وحوود لجميزة. تدرك أن لا وعيها يلاعبها ويتسلّى بتعذيبها، وتحدس بأن «شاهها للجميزة، في هذه اللحظة تحديقاً، ما هو لا علامة وبذكور بالحقيرة الآخذة في الاتساع بحرقها. تقف معلومات كاميليا عن هذه الشجرة رأسحة، تحدها أن تسي ما سبق وقرأته واستقر في وعيها:

يقول الأسطورة إن الفراعنة أطلقوا على الجميز «شجرة الحسد»،
وأمموا بأن روح «أتوم»، كبير الآلهة، تجسدت فيها. تحتها قتل سيت
أخاه أوزيريس، وحل محل جسدها، بعد تفريغه، تابوتاً له. هكذا صارت
الجميزة، وفقاً للميثولوجيا الفرعونية، أول تابوت في التاريخ، ومع هذا
نُظر إليها كـ «شجرة الحياة»، لأنها قل أن تكون تابوتاً لأوزيريس كانت
مهدداً له، حيث أنجبته «نوت» وبة اسماء داخلها، من هنا كانت تحدياً
لحصوية «نوت»، كما اقترحت بحثجور المعروفة بـ «شجرة الجميزة»

كنت كاميليا جميزة جنسها. كنت حذراً ثم تفرغه، بقرار منها،
وحفر فجوة بدخله، تحينه إلى تابوت، بعد أن كان مهدداً بطل

اسم اللعبة

سقطت «أليس» في حفرة الأرب لتطأ أرض العجائب، وقضى آدم أوقاته في طلمة قمو مزدحم بالكراكيب ومعطى بالعمار، فأقر سبر أعوار ذته، وسقط آخرون ليقتاحوا، في الهبة، بقاع هاوية أو ححيم في انتظارهم.

أما في حالة كاميليا، فلا أرض عجائب ولا من هاوية أو ححيم. فقط، سقوط دائم، سقوط حر بلا قرار ولا رغبة في الوصول إلى مستقر، بل شوق مُدلل للغرق.

جوع لا وسيلة لإشباعه، يشبه ما احتيرته، يوم ضلت طريقها بينما تقود سيارتها، في منطقة غير مألوقة لها.

كانت في طريقها إلى شاطئ الساحل الشمالي، حيث ينتظرها منير وابنه من زواجه الأولى انحرفت بالحطأ إلى طريق جانبي موارٍ بمصرف مائي. لاحظت أن الطريق مهجور، ولم تنصّر إساناً على مرمى البصر. ركبت سيارتها تحت شجرة كافور، وحطت صوب صفة المصرف. الشمس الشديدة انعكست أشعتها على أنماء فاستحال سطح مصقولاً. ساء معويًا بدرجة تفوق قدرها على الاحتمال أو المقاومة. بصعوبة امتنعت عن رمي نفسها فيه. عادت إلى السيارة و ستندارت بها عائدة

للطريق الرئيسي، للحظات خطر بها أن تقودها نحو الماء، معجبة نفسها
تجدر للأعماق في صدوق معدني معيق. اقتحمها إحساس بالعرق،
شعرت برئيتها تنصحمان حد لا حشاق، وأحسست دميها تملأهما،
كفحت من أجل شهقة أكسجين، اكتفتها ظلمه لم تعرف مصدرها،
ثم ارتعشت، وهزت رأسها بقوة، فأفاق من حديد، لتجد نفسها تقود
سيارتها في الطريق الفرعي. سم تفهم طبيعة ما مرت به، تلك الهبة
العمره لم يكن حياء ولا كنوسا كنت أشبه بتجربة روحية مزلزئة

رلراب عاوده، بعد سوات طويلة، أمام بحيرة «قارون» في اليوم
المياه المتلائة للبحيرة وقت الظهر كانت معرية بالعرق بدت كأنها
تدعو كاميليا للاتحام بها والنوم في أعماقها، حيث ستلتقي بمعري
وجودها، وستنتهم الفجوة المتسعة بدخلها شمس الظهر، تلك
المحرضة كل شيء على ارتداد ضده، حوَّلت سطح الماء إلى فضاء من
ماس برقي، أوحى لكميليا بأنه سوف يشو ليلتها، ثم سيعلق على
نفسه مجدداً.

هذا انسكون امحتر، في بحيرة قارون وما يشهها، هو ما يفقد
كاميليا مسطربها على تواربها لفسسي، ويوقظ فيها ميولاً للاستسلام
لإغواء لا تفهم سر حاديتها، لكنها تعرف أن لا قدرة لها على مقاومته أو
رغبة فيها إغواء أب تصيح سمكة، الماء امتداد لحسدها، بيتها ومسكن
روحها. سمكة تسكن الأنهار والسحيرت، وتحلم، فقط تحلم بالبحر
البعيدة كفكرة غير قابلة للتنفيذ.

أمام البحر، لا يساور كاميليا شعور مشاء شيء ما في صاحب البحر
وهجانه يجعنه متوقفاً حتى في انعدام توقعه وهي فيه تترك نفسها
لأمواجه لتلاعب بها، لكنها تظل نقطة مستعدة لمقاومة هيجان أمواجه
ومدركة لغزتها عنه على عكس ابجيرات والمياه لساكنة، بعش لبحر
برعة انقتال بذلها، ترعب في تحديه وهريمته رغم أن هذا بعيد عن

شخصيتها كما تعرفها يحتصنها مير وهو معها في البحر. «استرحي، اتركي نفسك للماء، استمتعي بالطفو فوقه». يقول لها، فتعكر في أنها لو تحبت عن حشرها بدقيقة سوف تحوّل السمكة لهرية لكامنة بأعماقها تندش من أنها صمدت في تقبل حياتها المصجرة كل هذه السوت، ولم تشعل النيران فيها، كي تنتقل إلى مرحلة أخرى لا تثقلها فيها جندور تمتد للأرض دعماً عنها، مرحلة تنماهى فيها مع العجر، أثناء الشمس وانطيمه ومع السوا الرحل، من لا تحدهم حدود ولا يستعدهم وطن، أو عني الأقل مع أبطال طفولتها المتمردين المستهين بالأعراف والأخطار:

الطلّ اللامالي يعدو يهدوء ما أن يتعد مسافة محسوبة، حتى يصغط رزاً فتتمحر محطة الوقود دون التفتاة منه، يو صل سيره انوائق فيما الانفجارات تنوالى في الخلفية، والذهب يكاد يصل إلى السماء

طالما فتئت كميليا بالمشاهد المماثلة في الأفلام أحببت الأبطال لمستعدين لتفجير حيواتهم نفسها والحصو عني أقدصه بلا اكراث أو بدم كم توحدت مع بول سومان في مشهد من فيلم «صيف طويل حار» مساهر بلا وجة محددة يشير لسيارة مارقة في اتجاه ما وحين لا تتوقف يتقل للساحية الأخرى من الطريق مشيراً لحرّة تقصد لاجاه امعاكس عابر سبيل بلا رواط أو حنور، بشعل النار في حياته في بقعة، ويهرب لأخرى بلا تخطيط مسبق منظرًا ما يحتاجه به الطريق.

سمت أن تحيا على هذا النحو بلا رواط أو مسؤوليات اسعادة بالنسة لها، تمثلت في التخلص من كل ما قد تحاف عله أو تحشى فقده. أزمتهما أنها لم تستطع الوصول إلى هذه الدرجه من التخيبي واللامبالاة وعم محاولاتها كان ثمة دومًا جذر يتعلص في عمق أرض ما، مرة يربطها بأمرها رغم تعتد علاقتهما، وأخرى يصلها بمير وعالمه استختلف عنها.

ربما تكون ورثت، عن أمها، عramها بالطل - انصد، رغم سخرتها سابقاً، من هذا الملمح في شخصية الأم ورثته بتعدين طفيف. أمها أحبه من بعيد تارة مثلاً في أحمد سالم، ونورطت معه تارة أخرى مثلاً في مقامر غير مستقر، تروحه وهي في العشرين، رغم معارضة أهلها أما كاميليا، فلم تشعب بهذا النمط كآخر مفصل عنها، بل أرادت أن تكون إياه.

بعد وفاة دولت، شعرت كاميليا أنها فقدت نصمها الآخر لم تكونا مقرتين، وهذا ما صاعف من حرنها أزعجها أن حياة أمها انتهت قبل أن تصل إلى السنين حية سريعة لاهثة تكاد تكون فارعة فكرت كاميليا في حية أمها؛ قرابة ستين عامًا من «الاشيء». ثرثرات وحملات وروح غير موجود ونماثم صعبة ولا شيء أكثر.

رغم سخرتها الدائمة من تعلق أمها بأحمد سالم وعلاقته العابرة بكاميليا، أحست الابنة، وهي تستعيد حياة الأم، أن هذا الملمح هو الأكثر فية في حياة شبه خالية من الأحداث لكيرة بدأت تجمع كل ما يمكنها الوصول إليه عن سالم. أدراج دولت كانت تحتوي على الكثير بالعص.

فوجئت، وهي ترتب متعلقات أمها، بقصاصات وأوراق جرائد عن أحمد سالم وصور له، أكثر بمراحل مما تحتويه الأدراج من خطبات وصور أيها لاحظت كاميليا أيضًا، لأول مرة، أشبه الكبير بين أيها وبين ممثل الأربعينات الغامض. للاثنتين لون البشرة نفسه، العينان الدائيتان لموحيان بالحصورة، ورجولة خشنة مهددة

في تلك اللحظة، حطر لكاميليا أنها لو حدث وكنت رواية عن أمها، سيكون أحمد سالم بطلها الأساسي بحيث تطهر دولت كمجرد طيف يعكسه ويشير إليه، ومن بين نساته ستحتار كاميليا وأسمهان للتركيز

عليهما: اكتشف الأولى ووقع معها عقد خنكار دون أن يتح بها فيلماً واحداً، فقط قدمها كرفيقة حفلات ونحمة قادمة، فل أن يثاقل عن عقده معها ليوسف وهي مقابل ثلاثة آلاف جنيه وتروح الثانية لتستقر رصاصة - من مسدسه في صدره، أثناء شجر عصف بيتهما، رصاصة سوف تسب، بعد سنوات، في موته موتاً فريداً يشبهه ويليق به

ما لم تفهمه كاميليا أو تترج له كان صورة لمير وهريدة بين مقتات أمها. الصورة ملتقطة في مطعم ما الاثنان مستديران نحو من ينتقص صورتها، فريدة بلوزة حريرية سوداء بلا أكمام - تكشف عن مساحة لا بأس بها من بشرة برونزية - وسروال صيق من اللون نفسه، أم مير ممسكة بسيجارة بيضاء الأخرى على فخذ روجته الأولى سكاقل الشفاة مبسمة، وثمة مسحة من استرخاء وحممية توحى بأن الاثنان غادرا القرائش قبل قليل.

«مير شاتاً!»، فكرت كاميليا الكلدان في خفيه الصورة توحى أنهما في اليونان، هي عطلة من عطلاتهما العديدة ذلك من لم تكن فيه سوى انة على أبواب المراهقة لإحدى معارفهما أعدت الصورة إلى مكانها وأغلقت الدرج.



«أحمل ما في الحقنة مير؟ ديدوية التخية التي لابسة فستان و ؟ فسدن وجيوبة نُطِي نُطَّة يا ديدوية يا التي تقلت نفل الطونة هه هه. و كمان نُطَّة . ونُطَّة كمان».

تغني فرقة «الفور إم» ويردد خلفها الصغار تصبح الأغنية من علامات الشميتينات تسمعهم كامليا يرددونها بابتهاج في الحفلات، وترى بعضهم يغمر نحوها، ينتصق اسم «ديدوية» بها، يناديها الجميع به بعد أن كان حصراً على أبيها. ينادونها «ديدوية»، فلا ترد بصعها أبوها في وجهها

مبتسمًا، كأنما يعتره تذبذب لا إهانة، فتذهب إليه محبرة وتخفي بقمتها، ثم لم يعد كل هذا يضايقها أو يشعرها بالخجل، أو ربما بدت يضايقها لدرجة لا تحدي معها المكابرة والإنكار، فتفحرت جسدها لبدن وتعلمت أن تحه وتقبله نكابة في الساحرين منها ومنه.

لم تقهر نفسها بحميات مبالغ فيها، ولم تعد تخجل حين يلمح أحدهم لامتلائها أو يسخر منه. تدرت على السحرة لذكى المصادرة والتحدي، على ألا تقيم نفسها بعيون الآخرين ووفق معاييرهم.

كانت الأعية تردد في ذكره كاميليا بينما تحلس لتناول إفطارها، في مطعم فندق صغير يطل على نهر «ليمات» بربرج. برودة الحاح يحتجزه رجاج بوجهه حيث هي، ثورات دافئة تلتقطها أذنا كاميليا صاحبة الفندق الشرفاء السخيفة وباذلة شاة تحكي بحماسة ما يُصحبك المرأة الأكبر سناً

لا تهتم كاميليا الكلمات المتقافزة حولها باللمنية، فتسرح عيها في المطر الحارحي. تشعرها السماء الغائمة والصباح الصباي بالآفة، يردانها إلى صبحات قديمة باردة خاضمتها الشمس وحرها الضوء، ومع هذا تحتص بها كاميليا في ركن دافئ بقلبها

نهر ليمات أهرب إلى قناة مائية واسعة نسبياً، تقطعه الجسور على مسافات متقاربة، لتصل بين شطري المدينة. أسراب بط وإوز تسبح فيه وطيور بيضاء تحلق فوقه، قبل أن تهبط لتمس ماءه سريعاً، ثم تعاود التحليق. مارة قليلون يسرون متعجس على انصراف أمام الفندق، ومارة آخرون أكثر استرخاءً يخطون بتكسل في الجهة الأخرى بمحاذاة «ليمات»، بينما تبعهم كاميليا نصف وعي، وهي تقصم ما لا تنبئ لكونها ولا تتلذذ بطعمه.

تفكر أن السير بمحاذاة النهر، سوف يوصلها إلى ابهيرة، حيث

يمكنه الجلوس لساعات تقرأ أو تكتب، أو فقط نشرد سدهية عن كل ما حولها.

تعاود النظر إلى النهر وطبوره الالهة بمائه، وتسعيد في ذهني ورده حمراء اشترتها أمس من محل زهور بمحطة القطار لرئيسة بارس، وهي في طريق عودتها إلى ريورخ، ورده مفتحة بساق طويلة، لكنها بلا راحة تقريباً، أو بالأحرى برائحة حصاة مُدَّكَّر بورود أخرى كالأنف يلتقط شداهما من بعيد.

دفعت سعة فرنكات سويسرية مقابلها لها، لأنها رعت في استرجاع ما سُرق منها قبل أربع سنوات في المكان نفسه.

موظف لاستقبال في فندق «الملوك الثلاثة» كان قد مسحها ورده حمراء كهذية وداع، وصعته في حفيه يدها بحيث تظهر انزهرة وحره من ساقها، وعدوت. اطمأنت على وحوده قبل أن تدخل محطة القطار، وعند الجلوس في مقعدها بالقطار المتجه إلى مطار ريورخ، فوحت باختفائها.

ولأن كاميليا هي كاميليا؛ اتت أمها وورث الكثير عنها، رغم تمردها الظاهري عليها، فهي تؤمن بالعلامات وتطير إذا صددها حدث سيء، لذا لم تتعامل مع الأمر كفصيلة عابرة، بل ككثير شؤم.

وهكذا بعد سنوات أربع، ظلت تتذكر وردتها المفقودة، وحيل لها أن شراء واحدة مشابهة من المكان نفسه حيث فقدت الأولى سيمثل تعويضاً ما وانتهى بها الأمر حلقة تحديق في الحياة بالخارج، عمر راح واحده صدق صغير، فيما وردتها الدلة ترقد في عرتها وقد بدأت في الدبول.

ما أن عادت إلى عرفة الفندق في آخر النهار حتى وضعتها بحرص بين دفتي كتب كما فعل العشاق الصغار، قبل أن يظل محاة في أحد أدراج عرفة يومها في القاهرة، تصادفها كاميليا أحياناً وهي تبحث في

الدرج عن شيء ماء، فتندش من إصرارها على استعادة الورد المفقودة
تحذق في الشيء الحاف أمامها، فيتضاعف جمال وردة لم تكن لها -
رغم أنها لا تكاد تتذكر شكلها.

تعصر ذاكرتها لاستحضار وردة كبيرة حمراء، كانت مبعها لعشر
دقائق فقط، فيها لها أنها تسمع ليلي مراد تغني أغنية قديمة، لا تفهم
الصلة بين ليلي، ذات الصوت العاسي، وبين زهرة تتجلى أوراقها القنة
تنفصل وتطير ببطء في الهواء.

تذكر فقط أن أحداً لم يحبرها، في سديم الطفولة، أن ثمة حملاً
يحتاج إلى درجة كافية من المصحح للحساس به، أن ثمة فناً يتطلب ذقنة
مدربة لتقديره؛ لأنه لا يدس نفسه لعشر عجور لا يحيد سحر أعمار الفتنة.
احتاجت سنوات حتى تنه إلى سر ليلي مراد وصوتها، حتى تذوقه
وتفك شيفرته بنفسها.

لكن ما علاقة هذا بأي شيء؟ بخطر لكاميليا في هذه اللحظة أن
نصيف لعبة حديدية لألعابها الذهبية اللانهائية. احتراع صلة بين أشياء لا
صلة ظاهرة بينهما.

هكذا يمكنها وصل صوت ليلي مراد بوردة نازل المفقودة، رقص
جيب كيلي تحت المطر بسرداب شجيج الإضاء، رائحة الزعفران بحجر
لأمتيست، جسد مارلين موبرو بكثرة وشيكة الوقوع، وجهه يريدون
يوري بيسين عارم، صوت ريتشارد بيرتون بحزيرة إستوائية، رباعيات
عمر الخيام شجر اللور، مارلين ماسون نبات الرداء الأحمر، لوسيان
فرويد بنوح لانهائية، شخصيات مارك شجال المعلقة بسفينة عارفة،
نظرة فيفيان لي بالاكشاف المتأخرة!

ففيان لي؟ كيف سم تدمج كاميليا في عيني فيفيان لي طيف الحور
المحذق بالمثلة الجميلة؟ كيف أخطأ حدس ميليا لمدرج على

اصطياده^٩ أي نظرة ارتسمت في عيني فيفيان الجميلتين وهي تنلني
جلسة الكهرباء الأولى^١ وما كان إحساسها ينمُّ تُدحرج ملفوفة في
بطانية مثلجة^٢ لم يصدقها لورانس أوليفيه، في البداية، حين حكمت له
عمّا تفعله الممرضة بها. طس الأمر محض هلاوس واختلاق. ثم يعرف
أن هذه هي طرق العلاج المختارة لحالتها إلا لاحقاً.

العيان الدكيتان اللتان لفتتا انتباه كاميليا حين شاهدت «ذهب مع
الريح» لأول مرة، كانتا تخشنان بذرة الجنون وترعياتها. لمحت فيهما
كاميليا أيضاً وعداً بـ «دراما كوين» مسكوبة بتدمير الذات.

كاميليا نفسها «دراما كوين» متكررة، سادحها ميل مقموع لتتهويل
والمبالغة والهستيريا، ميل تبدل جهود حارقة للنسصرة عليه ومحا صبرته،
فتسود لمن لا يفهم، مدكة للهلوه والعقل والبرائة.

من يتبعها وهي تتكلم، يحالها تفكر كثيراً قبل النطق بكلماتها،
وتتردد قبل التورط في الحديث، كأنما يفضل عليه الصمت وتركه إليه
كحجر راوية تركز عليه حياتها، غير أن صمتها وعدم تدفقها في لروح،
ليسا إلا مجرد قناع وسيلتها لترويض نفسها، ومحاولة لبناء سد يحجز
حلقه طوفان الكلمات والأصوات المحبوسة بداخلها في انتظار أدنى
فرصة للإعلان عن نفسها.

مع ذرة كاميليا على قمع ميلها للمبالغة والثثرة، لم تعد تعرف من هي
أهي المرأة المدفوعة المتحمسة للثروة حين تشعر بالارتياح؟ أم أخرى
تصحب بحساب وتتكلم بحساب ولا يكاد يفاحتها أو يدهشها شيء؟
أخرى، لو عاشت يوم القيامة، لو صغته بمجرد يوم غير ملائم للحروح

«أحمل ما هي الحفلة مين» .. ٤. تسمع كاميليا الأغنية القديمة
بأذني حيايتها، فتدور حول نفسها بلا توقف، على إيقاع موسيقى وهمية،

مستعيدة لعبة الصفولة المدوخة. «دوخيني يا لمونه! حيث الدور
وعقدان التوازن هدية، وحيث انغرق في حالة اليبس بين أمل مرحو.

تلف وتدور، حتى تتشي بشعور انحطاط تمترح فيه كل الأشياء
وتتداخل. تستحيل طفلة تلف حور نفسها بلا بهانة وهي تردد بصوت
لاؤ: «دوخيني يا لمونه»، حتى تدوخ فعلا وتعيم رؤيتها فتوهم أن البلاط
يتحرك والمصف يدور معها، فترتمي على الأرض في الصالة لحلمية
ليبت أهلها مستسلمة ومستمتعة بدوار مُعلّف بظلال وأخيلة متداخلة
تعب عن واقعها وذاتها وتفقد ذاكرتها لبرهة، تقترب فيها من لحظة
الإفافة من التخدير بعد العمديات الحراحية، حيث يكون عقلها ورقة
بيضاء ودتها بلا سمات وجسدها غير مُدرك بعد لألام الجراحة كونه
مغيبًا بالمخدر، ما أجملها من حالة!

في لحظة شبه الاستبصار، تأسست كأمليبا الأعنة والبعة لمدوخة،
وحُيِّل إليها أنها ترى نفسها بلا وجه. رأسها كرة بلا ملامح. بهت لوجه
وأمحى، وكلمة أمعن في عيمايه، نضح جسدها وعاد لاكتسازه القديم
غاب الوجه تمامًا، ثم طال الشعر وبات أشبه شعر أمها وشعر فريدة
بالتداد.

ثم كأن رسامًا بدأ يرسم الملامح المفقودة، ظهرت لها عيان، تلاهما
أنف، حاجبن، وهم. كعب عن أن يكون وجهها الأليف القديم، رأت
نفسها فريدة وهي تتمسح في منير ويتلوى جسدها في حصنه بحضنة
م، ثم صارت أمها وهي تفرد أورك «التدروت» أمها، ثم تعبس حتى
تحمّر تحديدت بين حاجبيها وتزرم شفثيها مترددة هل تعلن ما باحت به
الأوراق أم تتحايل وتلطّف تنبوءاتها.

بعدها أصبح الوجه لمير وأبيها معًا: كانت تحمل عيني منير وأنف
أبيها، ذقن مير وشفثيه الحارمتين، ووجنتي الأب وجهه كن الأمر

طريقاً، أن يكون لجسدها الأنثوي الممتلئ دي التضاريس الواضحة،
هذا الوجه الذكوري.

لولا رهنتها من هذا التمدل المتلاحق، واختفاء وجهها كما تعرفه،
لضحكت كاميليا حتى انقطاع أنفاسها. غير أنها لم تكن في وارد تقدير
الحائب الهزلي في ما تراه عادوها الشعور بتساع الحفرة المظلمة
بداخلها، بل أحست أن كسبها كله حفرة لا قرار لها، هاوية تعرق فيها
الأحاسيس والمشاعر والذكريات وتنعدم

مدت يدها إلى دُرج الكومود المجاور، تناولت حبة مسومة، اسلمتها،
ثم انتظرت نوراً تعنته بلا أحلام.

انتهى قبل أن يبدأ؟

من مقعد خشبي في باحة متحف على ضفة الملتافا قريباً من جسر تشارلز بدأ كل شيء.

وعلى مقعد خشبي في باحة متحف على ضفة الملتافا قريباً من جسر تشارلز انتهى كل شيء، تلاشى قبل حتى أن يبدأ.

الهواء منعش ولشمس دافئة، وأصوات حفلة تنبعث من المطعم لمطل على النهر والمقهيين في مواجهة وإلى يسار المقعد، وامرأة مكتنزة ترتاح على المقعد المطلي بالأحضر الداكن وعيناه ممعطتان إلى الأرض في المسافة بين قدميه المتعاعدتين قليلاً. إلى جانبها رجل يشعر داكن طويل نسبياً وملامح حادة.

«يوم جميل. أليس كذلك؟». قال، محاولاً بدء حوار مع جارته هزت رأسها موافقة دون كلام، وانطلعت رغبته في الترددشة مع امرأة لا تدل ملامحها على عرقها أو جسيبتها.

أخرج كنائناً واستغرق في القراءة، انغمس في أجواء مدينة قرعت من الهواء بفعل أطباق من القنابل شديدة لانتمجر، وبهر يكاد يغلي مژه، وأمين مكتبة يرى نفسه ساكناً عارفاً بالطو مُتَتاً قلبه على حوهر الفراغ، وعابية بلوط رطبة ومظلمة.

أما المرأة فواصلت التفكير في حلم يسكنها، تكتب فيه قصة - وتشاهدها وتشارك في أحداثها - عن كاتبة روسية وعازف يتأمل بأسى أصابعه المفرودة على مفاتيح البيانو، وعجوز يذرع جسراً بلا انقطاع، جسراً سبق لها أن شاهدت شبيهاً له في فيلم بالأبيض والأسود غابت عنها تفاصيله، ولم تنبئ منها سوى إضاءة شاحبة وجسر على نهر وشوارع شبه خالية من البشر.

في الوقت نفسه، وبعيداً عن الفلتافا وبراغ ومتحف كافكا، في حديقة عامة مهملة ومنسية على مقربة من النيل، كان ثمة امرأة في التاسعة والثلاثين، تتحسر على طفل أجهضته قبل أن يولد، وتحلق في صورة التقطتها سابقاً بعدسة تليفونها المحمول، صورة مثل ركلة غير متوقعة، تظهرها وحيدة منهكة وأكبر من عمرها الفعلي بسنوات.

رفعت المرأة وجهها إلى السماء، تتأمل تشكيلات السحب، وانفصلت عن ضجيج الشارع القريب، ثم وضعت يديها على جانبي رأسها، وركزت على تأمل الأرض في المسافة الفاصلة بين قدميها.

القاهرة - 22 مارس 2016

الفهرس

7	ليست صورة، بل ركلة محكمة
22	فليكن اسمها أولجا
31	عازف يحرق في أصابعه
41	حديقة الورد
51	قصة بالغلة التعقيد
61	ليمون ومشهد من ماضي سحيق
72	حيث بدأ كل شيء
81	رجل وامرأة وثالثهما بئر
88	ناسك في غابة
101	قلبك ابن منظور
111	حيث السحب منخفضة
124	أميديا.. أو سماء بلون الفيروز
135	عالم أزرق

- 143 امرأة حلمت أنها وردة!
- 153 حبة واحدة تكفي!
- 160 اسم اللعبة.
- 171 انتهى قبل أن يبدأ؟

في "أخيلة الظل" نحن أمام لعبة الفراضات وتحليلات لا يتضح شأنها من يديرها: كاميها؟ أو حيا؟ أم راوٍ خفي يحرك الجميع بين مدن والحقبة وأخرى متخيلة، وبحسب في ذاكرة الشخصيات التي تشبه الأولي المستطرفة؟

سردية لتشكّل من التمازج بين الوعي والذاكرة، الحلم والواقع، الماضي والآني في لعبة سرديّة مثيرة؛ لعبة كتابة - أو كتراسل - متبادلة، تتخللها قصص ومرويات يكتبها أبطال اعتادوا تبادل حكاياتهم، رغبة في القفز لأبواب الذكريات المعتملة، أو سعيًا لتفسير لحظة حاضرة، أو لملازمة عمرة الألم التي تعاصر الجميع كالحاجس أو الكابوس.

من مقعد خشبي على طرفة نهر الفلتافا في بواغ، يفتح صنفوق حكايات، تُسج منها مروية ذات إرث ثقافي متنوع.

منصورة عز الدين كاتبة مصرية من أعمالها: "متاهة مريم" و"جبل الرمرد" و"وراء الفردوس" التي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربية ٢٠١٠.

تُرجمت رواياتها إلى الإنجليزية والإيطالية والألمانية والفرنسية، ولخصصها القصيرة إلى أكثر من عشر لغات.